الفصل الثالث

جوانب صفى الدين الحلى

١ ــ آثاره

(ا) مؤلفاته

ذكر جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » وبروكلمان فى معجمه أن صفى الدين له مؤلفات عدة . وهى ــ عدا ما ذكره من مجموعات شعره التى سنتحدث عنها فيما بعد ــ :

١ ــ « العاطل الحالى والمرخص الغالى » فى الزجل والمواليا وكان وكان والقوما . ومنه نسخة مصورة فى دار الكتب المصرية . وبه بعض رسائله وحديث عن الزجل .

٢ ــ وصف الصيد بالبندق واسمه « الخدمة الجلية » . وفيه يصف هذا الضرب من الصيد .

٣ ــ ديوان « صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء » . ولعله مختارات شعرية .

٤ ــ « الأغلاطى » وهو معجم للأغلاط اللغوية .

ومنها أيضاً :

٥ ــ « النتائج الإلاهية » ، وهو كتاب شرح فيه بديعيته .

٦ ــ « الدرّ النفيس فى أجناس التجنيس » .

ولم نعثر للكتب الأربعة الأولى على أثر : أما الكتابان الآخران فإليك وجازة عن كل منهما :

١ ــ « النتائج الإلاهية » : نظم صفى الدين قصيدة بديعية فى مدح الرسول عليه السلام ، وهى تحتوى على مائة وواحد وخمسين نوعاً بديعيًّا ، بعضها من ابتكار صفى الدين . وقد رأى أن يشرحها فى كتاب فكان هو « النتائج الإلهية » ،

وهو شرح وجيز سهل لأنواع البديع لا غموض فيه ولا صعوبة ، برىء من كثير من عبارات البلاغيين ومصطلحاتهم الخشنة . فهو من هذه الناحية من أمثل كتب البديع . ولكنه لا يقارن « بخزانة الأدب » لابن حجة الحموى التى شرح فيها بديعيته فإنها أوسع وأوفى وأكثر تفصيلاً وامتلاء بمسائل الأدب والنقد والتاريخ .

وروى صفى الدين أنه وهو بسبيل نظم البديعية وتأليف شرحها قرأ سبعين كتاباً . وقد سجل أسماء هذه الكتب فى مقدمة الشرح ومنها أربعون نقلها عن ابن أبى الأصبع ، وثلاثون جدّت من بعده . والواقع أنها جميعاً أمهات كتب البلاغة حتى عصره .

وقد تحدث عن بعض رجال هذا الفن وأشار إلى شىء من جهودهم فى جمع ألوان البلاغة واستنباطها ، وهو حديث لطيف يعين الباحث فى نشأة علم البلاغة. ونذكر بهذه المناسبة أن رجال الأدب فى عصر صفى الدين كانوا يعدّون « البديع » عَلَماً على كل ألوان البلاغة ، وليس مقصوراً على المحسنات ، أى أنهم طووا كل أبوابها تحت لواء « البديع » .

٢ — الدر النفيس فى أجناس التجنيس : هذا كتاب يقع فى صفحات قليلة تحدث فيه صفى الدين عن أنواع التجنيس ومثّل لها . وهو لا يخرج فى حديثه وتمثيله عن المتداول فى كتب البديع [1] .

(ب) رسائله

لصفى الدين ثلاث رسائل طريفة مثبتة فى ديوان شعره المطبوع ، وهى منثورة بديعية الأسلوب ، وإليك وجازة عن كل منها :

١ — « الرسالة المهملة » : صدرت هذه الرسالة بمقدمة يفهم منها أن سبب كتابتها أن الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ، رتّب لصفى الدين مرتباً وأهدى إليه قماشاً وجمالا عام ٧٢٣ هـ وهو فى طريقه إلى الحج . فقطع الوزير « كريم الدين إدرارى » مرتب صفى الدين . فكتبها إلى السلطان يشكو إليه

---

(١) « النتائج الإلهية » مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية . « والدر النفيس » مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ويستنجز ما وعد به ، ويستأذن فى السفر .

وقد راعى صفى الدين فى كتابتها أن تكون جميع حروفها « مهملة » أى غير منقوطة ، باستثناء تاء التأنيث المربوطة . وكأنه اقتدى فيها بالحريرى فى خطبته بالمقامة السمرقندية . وسميت الرسالة لذلك « المهملة » .

٢ — « الرسالة التوءمية » : أنشأها صفى الدين عام ٧٠٠ هـ على نمط من أنماط المقامات الحريرية . وكان سبب إنشائها أنه جرى ذكر أبيات للحريرى فى مجلس المنصور الأرتقى ، وأولها : « زُيِّنَتْ زَينبْ بقدّ يقُدُّ » وقيل إن المتأخرين عجزوا عن هذه الصناعة نظماً ونثراً . وكان صفى الدين فى ذلك الحين قد وفد حديثاً إلى ماردين ، واتصل لأول مرة بمجالس المنصور . وكان حينذاك يطمع فى وظيفة كتابية يعيش من مرتبها مدة مقامه بماردين . فوجد الفرصة سانحة وملائمة لعرض بضاعته الأدبية وبيان مقدرته الإنشائية . فأنشأ الرسالة التوءمية . فهى من بواكير رسائله بماردين .

وتتألف — كما قال — من أربعمائة فقرة نثراً ، وثمانين نظماً فى عشرة أبيات على وزن واحد وروى واحد فى معانى شتى .

وراعى صفى الدين فى صياغتها أن تكون على نمط «زُينتْ زَينبٌ بقَدّ يقد» يتجانس فيها كل لفظين متجاورين تجانساً خطّياً ، لا يكادان يختلفان إلا فى حركات الحروف والنقط — فكأن كل لفظين توأمان لهذا التشابه الشديد . ولذلك سميت الرسالة « التوءمية » .

وهذه صناعة ، وإن دلّت على حذق ومهارة ، فيها تكلف شديد وانصراف صارخ عن جانب المعنى والفكرة إلى جانب اللفظ . ومثلها لا غناء فيها ولا طائل تحتها .

وكان موضوع الرسالة مدح الملك المنصور ، وشكوى الحال وعرض الآمال وفى مقدمتها يقول صفى الدين مخاطباً المنصور :

« قَبَّلَ قَبْلَ يَرَاكَ ثَرَاكَ عَبْدٌ عِنْدَ رَخَاكَ رَجَاكَ . أَبِيٌّ أَبَى سُؤَالَ سِوَاكَ » . وهكذا إلى آخر الرسالة نثرها وشعرها .

٣ ــ « رسالة الدار عن محاورات الفار » : هذه رسالة ــ أو مقامة ــ طريفة خفيفة الظل . كتبها صفى الدين على لسان دار سكنها بماردين ، وتعرف « بدار ابن الدكناس » . وفيها تشكو الدار إلى « القلعة الشهباء » مقر الملك الصالح الأرتقى ، أن أحد نوابه كان عليه لصفى الدين دين ، وكان عليه لبعض أصدقاء صفى الدين دين آخر أخذه على يده . وأخرج الدينين على مصالح الدولة ! وتعذر عليه وفاؤهما ومماطل فى الدفع . ولم يؤثر صفى الدين مخاشنة هذا النائب لما بينهما من الصحبة . فرأى أن ينشىء هذه الرسالة على لسان داره يشكو للملك الصالح . وكان ذلك على سبيل الخلاعة والمزاح . فلما اطلع الملك عليها أطلق له المال من خزائنه .

والرسالة ــ كما أشرنا ــ فكهة جميلة الأسلوب رقيقة العبارة . بالرغم مما يثقلها من أصباغ البديع . وهى طويلة جمعت ــ فضلا عن نزعتها الفكاهية ــ أغراضاً كتابية عدة ، كالدعاء والشكوى والمدح والوصف والحكمة والاستعطاف.

هذا ، والطريف فى الموضوع ، حوار الفئران فيما بينهم حول الدار وما مسّها من البؤس . وهو حوار تمثيلى لطيف نفهم منه أن النثر التمثيلى طاف يوماً ما ، وبصورة من الصور ، بأقلام أدباء العربية .

وبعد ، فهذه رسائله الثلاث المثبتة فى ديوانه . ولا نشك أن لصفى الدين رسائل أخرى ، ومنها رسائل إخوانية . ويدلك على ذلك أنه أثبت فى ديوانه فصلاً برمّته سجل فيه الأبيات والمقطوعات التى صدّر بها رسائله المنثورة إلى الأعيان والإخوان ، فى أغراض شتّى .

(ج) مجموعات أشعاره :

١ ــ ديوان شعره[1] :

يحتوى هذا الديوان على أكثر من عشرة آلاف بيت فى اثنى عشر باباً .

---

(١) اعتمدنا فى ديوان شعره على طبعاته الثلاث : طبعة بيروت عام ١٨٩٢م ، وطبعة دمشق عام ١٢٩٧هـ وطبعة النجف الأشرف عام ١٩٥٦م. وعلى نسختين خطيتين إحداهما بدار كتب البلدية بالإسكندرية ، والثانية بالمكتبة الأزهرية والخلاف بين هذه النسخ يسير ، من ناحية محتوياتها .

ويحتوى كل باب على فصلين أو أكثر . وجملة فصولها ثلاثون . والأبواب على التوالى وفى إيجاز : الفخر والحماسة . المدح . الطرديات والوصف . الإخوانيات . المراثى . الغزل . الخمريات ووصف الأزهار . الشكوى والعتاب . الاستهداء والاعتذار . الألغاز . الملح والأهاجى . الأدب والزهد .

وألحق بالديوان (ا) ديوانه درر النحور . (ب) بديعيته . (ج) رسائله الثلاث المنثورة التى أشرنا إليها . وليس به شىء من زجله .

وقد جمع صفى الدين ديوانه لأول مرة ، فى عهد الناصر محمد بن قلاوون بإشارة كاتب سره علاء الدين ابن الأثير . ويبدو أن ما جمعه حينذاك ليس كل شعره . بدليل قوله فى مقدمته مشيراً إلى الوزير علاء الدين بن الأثير : « أشار رئيس وزرائه وزعيم كتاب إنشائه . عن إشارته العالية ، أن أجمع له جزءاً من جد شعرى وهزله . ورقيق لفظى وجزله . وأن أبوبه أبين تبويب . وأرتبه أحسن ترتيب . ليكون ديواناً للمحاضرة . ومجموعاً للمذاكرة . فأجبت بالسمع والطاعة . واستحضرت ما حضرنى حسب الاستطاعة . فاخترت منه ما يحب ويبتغى . ورتبته على ما يجب وينبغى »

وهذا النص يشعرنا بأن الديوان مختارات من شعر صفى الدين ، وأن ثم شعراً له آخر لم يسجله . ثم إذا راعينا أنه جمعه فى نحو عام ٧٢٦ هـ ، وأنه توفى فى عام ٧٥٠ هـ ، كان لنا أن نتساءل عن نتاجه الشعرى فى مدى الأربعة والعشرين عاماً الباقية .

على أن المتصفح للديوان المطبوع يرى فيه مثلا — قصيدة فى رثاء المؤيد صاحب حماة . وقد توفى عام ٧٣٢ هـ ، وقصيدة فى تعزية ابنه الأفضل وتهنئته بعرش أبيه ، وذلك عام ٧٣٣ هـ . وأخرى فى رثاء الناصر بن قلاوون ، وقد توفى عام ٧٤١ هـ . وأمثال هذه القصائد فى ديوانه قليل . ولكن يفهم منها أن الديوان

والنسخ المطبوعة بها أخطاء كثيرة وخالية من الشروح والتعليقات .

وفى صدر النسخة الخطية التى بدار كتب الإسكندرية رسم لدوائر متداخلة إحداها داخل الأخرى وكل منها مقسم أقساماً ، وفى كل قسم كتب اسم طبقة موسيقية . وكتب فى أصغر دوائرها « دائرة الأنغام للشيخ صفى الدين الحلى » . فلعل صفى الدين كان ذا خبرة بفن الموسيقى .

المطبوع عن نسخة خطية ، ليس بالضبط ديوانه الذى جمعه فى عهد الناصر ، بدليل هذه الإضافات . وأن هذه الإضافات عثر عليها الناشرون بعد ، أو أضافها الناسخون لديوانه فيما بعد عام ٧٢٦ هـ . والذى نريد أن نخلُص إليه ، هو أن جزءاً كبيراً من شعر صفى الدين مفقود .

وقد روى صاحب « فوات الوفيات » — وهو متوفى عام ٧٦٤ هـ ، ومن معاصرى صفى الدين — قال : « وديوانه الذى دوّنه بنفسه ثلاثة مجلدات وكله جيد » .

وأخيراً نوجه الأنظار إلى ضرورة جمع ديوان هذا الشاعر الكبير ضاما شعره كله من مظانّه . ثم طبعه طبعاً حديثاً مزوّداً بالشروح والتعليقات . فإن طبعاته الحالية خالية من أى شرح وتعليق .

ولا بد من الإشارة — فضلا عمّا مرّ — إلى أن باب المديح يحتوى على عدة مجاميع شعرية طلية ، وهى :

(ا) المنصوريات

هى نحو ثمانى قصائد صاغها صفى الدين فى مدح المنصور الأرتقى ، فنسبت إليه . وهى قصائد طويلة منها ما يقع فى أكثر من سبعين بيتاً . وكل منها متنوع الأغراض — فضلاً عن غرضها الرئيسى — فمنها على سبيل المثال : « القصيدة القافية » : نظمها فى عام ٧٠١ هـ بعد أن انتهى من نظم « الأرتقيات » وقدمها إلى الملك المنصور — وقد بدأها بالتشوق إلى دياره بالعراق ووصف لوعته وطول ليله ، وانتقل إلى مدح المنصور ثم نوه مفتخراً بقصائده الأرتقيات وإبداعه فى نظمها . «موشحته الرائية»: ونظم فى عام ٧٠١ هـ أيضاً موشحة مخمسة رائية ، كل مذهب منها خمسة أشطار . وهى من بحر الرجز . وقد وصف فيها الصيد فى وديان ديار بكر ومناظرها الطبيعية وما فيها من أشجار وأزهار وأطيار وأمواه وأنسام . وكان الفصل خريفاً يبشّر بالشتاء — وندر احتفال شعراء العربية بوصف الخريف وما فيه من مجالى الجمال — ثم انتقل إلى مدح المنصور . ولم يخل مدحه من مبالغات .

وموشحة صفى الدين هذه ، على رقتها وعذوبتها ، لم تبلغ ما بلغته من ذلك ، قصيدة « مصائد الشوارد » التى نظمها ابن نباتة معاصره ، فى نحو مائتى بيت ، أرجوزةً يصف فيها الصيد فى أودية حماة ويمدح ملكها الأفضل . على أن لصفى الدين فى مدح المنصور قصائد أخرى ، ومقطعات لطيفة ، وحبذا لو جمعت كلها متجاورة فى صعيد واحد وعُنى بشرحها .

(ب) الصالحيات

هى نحو خمس عشرة قصيدة فى مدح الصالح الأرتقى ، فنسبت إليه . وهى قصائد طويلة أيضاً ضافية على نمط من « المنصوريات » ، وفيها وفى « المنصوريات » تتبدى علاقة صفى الدين بملوك بنى أرتق ، وتتضح منزلته عندهم ، فإنه نهج فى بعضها نهجاً سياسياً بذل لهم فيه الرأى والنصيحة .

قصيدته الرائية : ومن أمتع الصالحيات وأجمعها أغراضاً ومعانى ، هذه القصيدة الرائية التى تقع فى نحو ٨٥ بيتاً . بدأها صفى الدين بوصف روضة ، فذكر ما فيها من أغصان منصوبة وماء مصروف وظل ممدود وريح رخاء ، ونرجس غض وأقحوان زاه . ونوه بما كان له فيها من تصاب عاونه عليه شبابه اليافع . وبما لابس ذلك من غناء ورقص وخمر . وهنا يصف لك صفى الدين مغنّياً يضرب على عوده ، وراقصات تميل وتتثنى . وحامل كأس يدور بعطفه المخمور ، إلى غير ذلك مما يرسم صورة جنة فيحاء امتلأت حياة وحركة ، وأفعمت نعيماً ومتعة .

وينتقل بعد ذلك إلى مدح الصالح فينعته بكل فضيلة نفسية ، فهو الواهب المال ، المهيب الطلعة صاحب الخيل المبذولة ، والجواسق العامرة المأهولة ، قاهر الأعداء ومذل القرناء . إلى غير ذلك .

وينوه بعد ذلك بشعره مفتخراً به معلناً بأن الزمن قد تأخر به ، وحقه أن يتقدم ، قارناً نفسه بأبى الطيب المتنبى فاخراً عليه . . .

هذا ، وإذا لاحظنا أن اتصال صفى الدين بالأرتقيين لبث من نحو عام ٧٠٠هـ إلى نحو عام ٧٤٠ هـ وشعرنا بأن مدائحه فيهم قليلة بالنسبة لهذا الزمن الطويل . فلا بد أنه ضاع منها الشيء الكثير .

(حـ) الناصريات

هذه ثلاث قصائد فى مدح الناصر محمد بن قلاوون . منها أرجوزة نونية جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه . وسجلنا منها أبياتاً فيما مر .

وقصيدته الثانية بائية . وقد اقترحت عليه معارضة لبائية المتنبي التى مطلعها :

بأبى الشموسَ الجانحاتِ غواربَا ‌ ‌ ‌ اللابساتِ من الحريرِ جلاَبِبَا[١]

فنظم صفى الدين هذه البائية فى ٦١ بيتاً . وبرز فيها ثلاثة أغراض : الغزل أولا ثم مدح الناصر ، وقد استغرق المدح أكثر أبياتها . ثم التنويه بنفسه وبإكرام الناصر له .

وتعد هذه البائية من أجود قصائد صفى الدين لمتانة نسجها وكثرة معانيها ، ولأن أكثرها فى المديح وهو غرضها الأساسى ، ثم لعذوبتها ولما فيها من بديع غير متكلف .

قصيدته النونية الثالثة : نظمها فى مدح الناصر بمناسبة كسر الخليج . وقد قدمها بوصف الربيع ، وتقع فى نحو ٧٠ بيتاً وهى من القصائد المشهورة المتداولة فى وصف الربيع .

(د) المؤيديات والأفضليات

وبديوانه نحو ثمانى قصائد فى مدح الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة ، وفى مدح ابنه الملك الأفضل . ولكنها لم تسمّ باسم كغيرها . ولا بأس من أن نطلق عليها لفظ « المؤيدات » و « الأفضليات » .

---

(١) بأبى . . . أى أفدى بأبى – الجانحات : المائلات . والغوارب : جمع غارب وهو الكاهل أو أعلى الظهر إلى الرقبة . والمراد اللاتى يملن دلالا وتيها .

٢ ـ درر النحور

هذا اسم ديوان شعر مستقل نظمه صفى الدين فى مدح الملك المنصور الأرتقى وتسمى قصائده « الأرتقيات » نسبة إلى أرتق . ويقال لها أيضاً « المحبوكات » . لأنها محبوكة الطرفين ، حروف أوائل أبياتها كرويها .

وقد نظمه الشاعر فى أول ما اتصل بالملك المنصور ليبين له مقدرته على النظم وعلو كعبه فى الأدب. وكان بعض هذه الدول التركية المتفرعة من العباسية أو عاشت بعدها ، تحتفل احتفالاً ما بالأدب والشعر العربى . فأراد صفى الدين أن يكون ديوانه هذا « نموذجاً » لشعره ولما سيكون منه إذا وجد صدراً رحباً وكنفاً واسعاً لدى المنصور . وقد كانت عاقبته ما رأيناه عند الحديث عن صلته ببنى أرتق .

ويبدو أن صفى الدين نظمها كلها « التسع والعشرين » قصيدة ، دفعة واحدة لا بمناسبات ، سوى مناسبة واحدة وهى قدومه على المنصور فى نحو سنة ٧٠٠ هـ أو ٧٠١ هـ آملاً :

قال من القصيدة الهمزية يفصح عن ذلك :

أَبْعَدْتُ عَنْ أرضِ العِرَاقِ رَكَائِبِي مُتَنَقِّلاً كَتَنَقُّلِ الأَفْيَاءِ (١)
أَرْجُو بِقَطْعِ البيدِ قَطْعَ مَطَامِعِي وأَرُومُ بالمنصورِ نصرَ لِوائِي
أَدْرَكْتُهُ فَجَعَلْتُ أَلْثِمُ فَرْحَةً بوصوله أخفافَ نُوقِ رَجَائِي (٢)

وقد نظمها بعدد حروف الهجاء ، ليكون لكل حرف منها قصيدة ، هو قافيتها ، فقصيدة ألفية ، وقصيدة بائية ، وهلمّ جرّا .

والتزم أن يبدأ كل بيت فى القصيدة بنفس الحرف الذى ينتهى به . فكل أبيات القصيدة الألفية ـ مثلا ـ تبدأ بالألف كما تنتهى بالألف . وهكذا جميع القصائد . وهذا ضرب من الالتزام جديد ، وفيه تكلف لا داعى إليه سوى الرغبة فى بيان المقدرة على صناعة الشعر .

(١) الأفياء : الظلال جمع فىء .

(٢) فى قوله : أخفاف نوق رجائى ، تكلف فى الاستعارة .

obeikandi.com

والتزم كذلك أن يكون عدد أبيات كل قصيدة تسعة وعشرين بيتاً . فجملة أبيات الأرتقيات نحو خمسمائة وخمسين .

والأرتقيات فى جملتها تدور حول معان واحدة ، على وجه التقريب . وهى وصف حالته قبل القدوم إلى المنصور ، وآماله التى علقها عليه ، ومدحه ومدح بيته . وكثيراً ما قدم هذا بغزل أو وصف خمر أو نحو ذلك .

ولا نرتاب فى أن « الأرتقيات » عمل شعرى محمود ، ولا سيما إذا راعينا أن الشاعر لم يخفت نفسه ولم يسفل نظمه أو يضطرب . بل حافظ على مستواه ، على الرغم من اشتراك المعانى بينها . ولكنه عمل لا يساوى ما بذل فيه من جهد ومشقة . وقد وازن تلك القصائد وعارضها جماعة من الأواخر فى مواضيع شتى [1] .

٣ ــ الكافية البديعية

ابتدعت « البديعيات » فى عصر صفى الدين الحلى . وترجع فكرتها إلى ثلاثة أمور : غرام الشعراء بالبديع ، وإعجابهم ببردة البوصيرى ، ورغبتهم فى مدح الرسول عليه السلام .

والبديعية قصيدة ميمية من بحر البسيط على نمط بردة البوصيرى ، فى مدح الرسول عليه السلام . والغرض الأول من نظمها إيراد المحسنات البديعية بحيث يحتوى كل بيت فيها على نوع ــ على الأقل ــ من هذه المحسنات . وقد يُمثل الشاعر له ، أو يشير إلى اسمه بكلمة . وقد يشير إلى اسم النوع ولا يمثل له .

هذه هى الصفات الغالبة التى تتصف بها البديعية ، وقد تخرج عليها ، فتنظم مثلا من بحر آخر غير البسيط ، أو تنظم فى غير مدح الرسول عليه السلام . وهكذا . غير أنها لا تخلو من البديع .

والبديعيات ، لهذا ، منظومات فحسب ، يمكن إلحاقها بنظم حقائق العلوم .

وقد نظم صفى الدين بديعية لطيفة وسماها «الكافية البديعية فى المدائح النبوية». واختلف المؤرخون فيمن ابتكر هذا الفن الشعرى الجديد . أهو صفى الدين أم

---

(١) عن كتاب البابليات لليعقوبى ، وقد ذكر أسماء بعض المعارضين ــ انظر مقدمة ديوانه طبعة النجف .

ابن جابر الأندلسى . ذلك لأن ابن جابر نظم بديعية أخرى تعرف ببديعية العميان. وهو معاصر لصفى الدين وقد توفى عام ٧٨٠ هـ [١] .

والذى يقرأ مقدمة صفى الدين فى شرح بديعيته هذه، يشعر أنه مخترع هذا اللون من الشعر . وقد بين فى هذه المقدمة أنه أراد أن يؤلف كتاباً فى البديع فعرته علة طالت مدتها. ثم رأى فى منامه رسالة من النبى عليه السلام يتقاضاه المديح . فعدل عن تأليفه إلى نظم قصيدة تتضمن أنواع البديع ، ثم شرحها فى كتابه « النتائج الإلاهية » .

وهذا المنام يذكرنا بمنام البوصيرى الخاص بقصيدته « البردة » . فإنه كان قد مرض وطال مرضه، فنظم هذه القصيدة مدحاً فى الرسول الكريم وتشفع به إلى الله ليشفيه . ثم رأى النبى عليه السلام فى المنام، فمسح على مكان مرضه وألقى عليه « بردة » . واتصل هذا المنام بحوادث ورؤى أخرى . ومن ثم سميت القصيدة بالبردة .

ونحن هنا لا نتعرض لتفسير هذه الرؤى . وقد ناقشها المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « المدائح النبوية » .

والذى نوجه إليه النظر بهذه المناسبة شيئان : الأول أن شاعراً اسمه أمين الدين [٢] السليمانى الإربلى المتوفى عام ٦٧٠ هـ نظم قصيدة غزلية فى ستة وثلاثين بيتاً فى كل منها نوع بديعى . فهو أسبق من الحلى وابن جابر بفكرة البديعية . والثانى أن ابتكار البديعيات كان فتحاً مبيناً فى الأدب العربى . فقد توالى ناظمو البديعيات على هذا النمط وغيره ، حتى أصبحت مجموعة ضخمة جديرة بأن تجمع وحدها فى ديوان . وممن نظمها بعد صفى الدين ، عز الذين الموصلى وتقى الدين بن حجة الحموى [٣] .

وقد شرح أكثر ناظمى البديعيات بديعياتهم فى كتب ؛ منها الوجيز ومنها

---

(١) انظر المدائح النبوية لزكى مبارك . (٢) ترجمه فى فوات الوفيات .

(٣) بلغ عدد شعراء البديعيات نحو ثلاثين شاعراً ، وقد ذكرهم العلامة الأمين فى الجزء السادس من كتابه « الغدير » — انظر مقدمة ديوان الحلى طبعة النجف الأشرف .

المطول ، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الأدب ، ومنهم صفى الدين فى « النتائج الإلاهية » ، وتقى الدين بن حجة فى كتابه « تقديم أبى بكر » المشهور بخزانة الأدب .

وقد شرح صفى الدين نهجه الذى اتبعه فى نظم بديعيته فقال : « وألزمت نفسى فى نظمها عدم التكلف وترك التعسف والجرى على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته ، وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطلع والمنزع ، وحسن المطاب والمقطع . وتمكن قوافيها وظهور القوى فيها ، بحيث يحسبها السامع غفلا من الصنائع » .

وأعتقد أن صفى الدين قد برّ فى منهجه — ولو إلى حد — فإن بديعيته ، كما تبدو لنا ، أمثل البديعيات وأسلسها على الرغم من أن جميع البديعيات تعانى تكلفات كثيرة وتعسفات عدة .

وبلغ عدد أبياتها مائة وخمسة وأربعين بيتاً . تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً بديعياً ، بعضها من ابتكار صفى الدين ، فى كل بيت منها نوع بديعى على الأقل . ولكنه لم يشر إلى أسماء الأنواع .

وبديعية صفى الدين بسهولتها نسبياً وبوضوح أمثلتها البديعية . يستطيع طالب البديع والبلاغة أن يستغنى بها وبشرحها عن كثير من المطولات ، وقد قال صفى الدين فى فاتحة هذه المنظومة :

« انظر أيها الناقد الأديب . والعالم اللبيب . إلى غزارة الجمع ، ضمن الرياقة فى السمع . فإنها نتيجة سبعين كتاباً ، لم أعدُ منها باباً . فاستغن بها عن حشو الكتب المطولة ، ووعر الألفاظ المغلغلة .

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيرَ صوتى فإنَّنِي أَنَا الصَّائِحُ المحكِيُّ والآخرُ الصَّدَى (١)

وبعد فهذه أهم المجاميع الشعرية الموجودة بديوان صفى الدين . ويتبقى بعد ذلك قصائده ومقطعاته المتنوعة ، وهى مئات ، فى سائر أبوابه الاثنى عشر وفصولها الثلاثين . ونكتفى بالحديث عنها فى جملة فنون شعره .

---

(١) الصدى : رجع الصوت — البيت للمتنبى .

٢ – نثره الفنى وأسلوبه

أشرنا فيما سبق إلى أن لصفى الدين ثلاث رسائل ، وهى كل ما وجدناه من رسائله المنثورة ملحقاً بديوان شعره . وهذا نتاج فى النثر قليل . بالنسبة إلى حياته الطويلة التى يبدو لنا أنها كانت خصبة .

والعجيب أن صفى الدين نزح إلى بنى أرتق وعرّض بطلب خدمة لإنشاء بعض رسائلهم . أفتراهم اكتفوا به شاعراً ؟ ولم يسندوا إليه تدبيج رسائلهم ؟ أم أنهم وظفوه منشئاً وعفى الزمان على ما كتب وما أنشأ ، كما عفى على ما كتب وأنشأ كثير من منشئى عصره ؟ ولم يستطع جمعه كما جمع شعره . قد يكون هذا وقد يكون ذاك .

على أن رسائله الثلاث تدل على علو كعبه فى الكتابة وعلى مقدرته فى الإنشاء ، وعلى أنه لا ينقصه من مؤهلاتهما شىء . بل اكتملت له وزاد عليها ، لما ترى من تلاعبه فى ألفاظه ، وثروته اللغوية .

وقد نهج صفى الدين فيها المنهج السائد فى عصره . وهو النهج البديعى المبنى على الطريقة الفاضلية . وقصارى هذا النهج : التزامُ السجع والجناسُ والطباق والإكثار من التورية والاستخدام والتلميح للحوادث الشهيرة وحل المنظوم واقتباس الآيات وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال والإمعان فى التشبيه والاستعارة ، إلى غير ذلك .

غير أننا نلاحظ فى نثر صفى الدين عدة خصوصيات منها :

(١) أن سجعاته خفيفة قصيرة مقبولة فى جملتها ، يتكون بعضها أحياناً من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل ، أو موصوف وصفة ، أو مضاف ومضاف إليه أو نحو ذلك ، بغير حشو ولا قيود ولا فصل ولا تقديم ولا تأخير . ومثل ذلك قوله من رسالته المهملة : « أسد الآساد . ومكمد الحساد . ومورد الوراد . الهمام الأروع . والأسد الأدرع . أسد كل حاسر ومدرع . هادم الأموال . وحامل الأهوال . وحاطم الأسل الطوال . » . . . إلخ .

هذا ، مع أن كتّاب عصره وضعوا نظاماً للفقرات المسجوعة واهتموا بعدد كلماتها ، وآثروا إطالة الفقرات التالية عن الأولى . إلى غير ذلك .

(ب) أنه لم يهتم بالتورية والاستخدام ، مع أنهما كانا من دعائم الكتابة فى مصر والشام فى زمانه — وزعيمهما غير منازع ، جمال الدين بن نباتة المصرى .

ولعل طول إقامة صفى الدين بعيداً عن هذين المصرين جعله أضعف تأثراً بمناهج كتّابهما وأقل خبرة بهاتين الدعامتين .

(حـ) أنه أكثر احتفالاً بالجناس ، وذلك بالقياس إلى فحول كتّاب جيله كالشهاب الحلبي وابن نباتة ، الذى عدّ الجناس محسناً لفظيًّا لا معنويًّا ، فلا طائل تحته .

(د) على أن لصفى الدين خصوصية غريبة — بدت فى شعره أكثر من بدوها فى نثره الموجود بين أيدينا — وتلك هى جنوحه فى بعض ما كتب إلى التلاعب بالألفاظ ، وذلك باستعمالها معجمة — منقوطة — أو مهملة ، أو مصحفة مجنسة تجنيساً خطيًّا أو نحو ذلك . وهو تكلف شديد لا غناء فيه .

أجل إن لغيره من الكتّاب أو الشعراء تلاعباً على هذا الغرار . ولكن صفى الدين أربى عليهم فى هذا المضمار . ومن الأمثلة على ذلك مجانساته الخطية فى الرسالة التوءمية . واستخدام الكلمات غير المنقوطة فى الرسالة المهملة . ومن الرسالة التوءمية قوله : يخاطب الملك الناصر :

« عَبْدُهُ عِنْدَهُ وَهْمٌ وَهَمٌّ ، وَقَدْ وَفَدَ مُسْتَجِيراً مُسْتَخِيراً حُرْمَةَ حَرَمِهِ ، وَأَحَبَّ وَاجِبَ ثَبَاتِهِ ببابه العَالى ، الفَالى ، بحيثُ يُجِيب نَدَاهُ نِدَاه . فَقَدْ فَقَدَ أَهِلَّةَ أَهْلِهِ وَلَذَّةَ وَلَدِهِ ، ورِجَالَه وَرِحَالَه ومَالَهُ ومآلَهُ ، وخَيله وحَيْلَهُ ونَسَبَه ونَشَبَه ، ونُضَاره ونصاره ومَجالسه ومُجالسه ومَعَاشِرَه ومُعَاشِره » . . إلخ .

(هـ) أنه يسوق أبياتاً من الشعر بين فقرات نثره ، مناسبة للسياق . ونعتقد أنها من شعره لا من شعر غيره .

obeikandi.com

(و) أنه يستخدم ألفاظاً من مصطلحات الرسائل حينذاك نحو : يقبل الأرض . والمملوك والمملوكة . والباب العالى .

(ز) أنه كان يجنح إلى المقدمات ، وإلى الإكثار من الأوصاف والترادف ، وهذه خصوصيات شائعة فى رسائل عصره .

٣ — شعره

اشتهر صفى الدين شاعراً أكثر منه ناثراً . وذلك لوفرة نتاجه الشعرى وقلة نتاجه النثرى . مع أنه ندر أن عرفنا فحلاً من فحول الشعر من معاصريه ، إلا وجدناه قد برّز فى كلا الفنين الشعر والنثر ، كالحلبى وابن نباتة والشهاب بن فضل الله العمرى .

(ا) تكسبه بالشعر

وقد أشرنا إلى دستوره الذى سنه لنفسه منذ مطالع شبابه . وهو « أنه عاهد نفسه ألا يمدح كريماً وإن جل ، ولا يهجو لئيما وإن ذل . وذلك للتنزه عن التشبه بذوى السؤال . والترفع عن التتبع لمثالب الرجال » .

وقد برّ صفى الدين فتمسك بنصف هذا الدستور فلم يتعرض لهجاء الناس . وقد حوى ديوانه أبياتاً قليلة ومقطعات يسيرة فى باب الهجاء . ولكنه نظمها من باب امتحان قريحته ، واستجابة لاقتراح بعض الأفاضل عليه فحسب .

أما النصف الثانى من دستوره هذا ، فإن الأيام كانت أقوى من إرادته ومن كبريائه ، فجرفته جرفاً إلى ميدان التكسب واحتراف الشعر . وذلك بعد ما نبا به المقام ببلده الحلة ، وشعر بالحاجة إلى الهجرة واتصاله ببنى أرتق ، فكفلوه وأغدقوا عليه وأصبحوا أولياء نعمته ، فاضطر إلى مدحهم . وظلت هذه صناعته نحو أربعين عاماً ، طاف خلالها على ملوك غير الأرتقيين . مدحهم أيضاً ونال من عطائهم وصلاتهم . بل وشكا أحياناً من تأخر هذه الصلات . . .

غير أن صفى الدين — وإن اعترف فى شعره بهبات هؤلاء الملوك ، دأب على تعليل مدحه لهم بأنه جزاء لهم وشكر فحسب . لما يبذلونه له . فلم يكن مدّاحاً

يبتغى كسباً ، ولم يكن ملحاحاً يصرح بطلب عطاء أو ابتغاء صلة . وإنما هو يجزى هباتهم المالية بهباته الشعرية . ولم ينس قط فى مناسبات كثيرة أن يبرئ نفسه وشعره من مذلة التكسب ، وأن يسمو بهما إلى أفق من الفخر والزهو يعصمهما عن مظنة الاحتراف . وأنه لم ينزل حمى الملوك إلا نزول الصديق على الصديق ، ولم يحل بهم إلا حلول الفرد بأهله . يقول :

وَلاَ رَأْىَ لِى إلاَّ إذا كنتُ حَاقِناً ... لِمَاءِ المُحَيَّا عن سُؤالِ بَنِى الدَّهْرِ (١)
ولم تَثْنِ أبكارُ المــدائحِ عِطفَها ... لتُجلَى عليهم فى غلائلَ من شِعْرِى (٢)
ولَمْ أبتَذِلْ عُرسَ المَدِيحِ لِخَاطِبِ ... ولو أرْغَبُونِى بالجزيلِ من المهرِ (٣)

(ب) دلالة شعره عليه وعلى عصره

رأينا فى الفصل الثانى طرفاً من حياة صفى الدين ونشأته ببلده الحلة وتأثره بحوادث قومه ومنازعاتهم ووقائعهم مع أعدائهم . وكيف كان صفى الدين لساناً لهم ومشعلا لحماستهم بل أحد قادتهم إلى الثأر والانتقام ، فارساً مقداماً ومقاتلاً مغامراً ، يجول بطرفه ويصول برمحه أو بسيفه .

وامتلأ شعره فى هذه الحقبة بالفخر والحماسة ووصف الوقائع . فكان صدى صادقاً لما يجرى من حوله من الأحداث . يقول :

ولَمَّا أبتْ إلاَّ نِزَالا كُماتُهُمْ ... دَرَأْتُ بِمُهْرِى فى صُدُورِ المَقَانِبِ (٤)
فعلَّتُ شَمَّ الأرضِ شُمَّ أنوفِهم ... وعوّدْتُ ثغرَ التُّربِ لَثْمَ التَّرَائِبِ (٥)

---

(١) الحاقن : حقن ماء محياه ، حفظ ماء وجهه .

(٢) أبكار المدائح : قصائده العصماء . العطف : الجانب — الغلائل : جمع غلالة وهى شعار تحت الثوب .

(٣) عرس المديح : أشعار المديح الشبيهة بالعرس لجمالها . أو تشبيه بليغ أضاف المشبه به للمشبه .

(٤) الكماة : الشجعان جمع كمى . — درأ : دفع — المقانب : الذئاب الضارية ، ويريد بها أعداءه .

(٥) شم أنوفهم : أى أنوفهم الشم الأبية المزهوة — الترائب : جمع تريبة وهى عظم الصدر .

بِطِرْفٍ عَلاَ فِى قَبْضَةِ الريحِ سابحٍ ... لهُ أربعٌ تحكى أناملَ حَاسِبِ (١)
ومَسْرُودةٍ من نَسجِ داودَ نَثرةٍ ... كَلَمْعِ غَدِيرٍ ماؤُه غَيرُ ذائبِ (٢)
وأسْمَرَ مهزوزِ المَعَاطِفِ ذَابِلٍ ... وأبيضَ مسنونِ الغِرَارَيْنِ قاضِبِ (٣)

ويهيب به قومه فيأبى إلا أن يلبيهم وأن يتقدمهم ، وأن يكون أول من يصطلى بنار الحرب :

لَمَّا دَعَتْنِي للنـِّزَالِ أقارِبِي ... لَبَّاهُمُ عَنِّى لسـانُ المُنْصُلِ (٤)
وأبَيْتُ مِن أنِّى أعِيشُ بِعِزِّهِمْ ... وأكونُ عَنْهُمْ فِى الحروبِ بِمَعْزِلِ (٥)
وَافَيْتُ فى يومٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ ... أغْشَى الهَيَاجَ عَلَى أغَرَّ مُحَجَّلِ (٦)
ثارَ العَجَاجُ فكنتُ أولَ صائلٍ ... وعَلاَ الضِّرَامُ فكنتُ أولَ مُصْطَلِ (٧)

وعلى هذا الغرار مضى صفى الدين مفتخراً بنفسه وفروسيته ، مزهوا بقومه وإبائهم :

إنما مَفْخَرِى بِنَفْسِى وَقَوْمِى ... وَقَنَاتِى وصَارِمِى وَجَوَادِى

ولما نال من أعدائه وأوقع بهم ، غنى بذلك وشدا ، ونظم قصيدته البارعة « سلى الرماحَ العوالى » . . .

---

(١) الطرف : بكسر الطاء الفرس . وهو فى البيت يصفه بالسرعة وتتابع قوائمه فى عجلة .

(٢) المسرودة : الدرع — من نسج داود : يعنى من صنعه ، كناية عن قوتها ومتانتها . نثرة : الدرع السلسة الملبس أو الواسعة .

(٣) الأسمر : الرمح — والذابل : الضامر اليابس القوى . المعاطف : جمع معطف وهو الرداء . والمراد الجانب . والأبيض : السيف — والغرار : الحد — والقاضب : القاطع .

(٤) النزال : المنازلة والقتال — المنصل : بضم الميم والصاد ، السيف .

(٥) بمعزل : فى مكان منعزل بعيد عنهم ، أى لا يشاركهم فى حروبهم .

(٦) الأغر : الفرس فى جبهته غرة وهى بياض فيها . والأغر من كل شىء الأبيض . والمحجل : الفرس فى قوائمه بياض — واليوم الأغر المحجل المشهور لما فيه من الأعمال الواضحة البارزة ، كأنه الغرة أو التحجيل .

(٧) العجاج : الغبار ، يريد غبار الحرب . والضرام : الاشتعال ، يريد اشتعال الحرب . المصطلى : المستدفىء بالنار ، يريد أنه أول من حارب وحمل أضرار الحرب .

غير أن الأيام تقلبت به وتحولت عنه واستطال أعداؤه عليه وعلى قومه ، وسئموه لكثرة ما يهجوهم ويؤلب عليهم وحاولوا قتله — وقد أصبحت لهم الولاية فى بلده — فلاذ بالفرار من الحلة ، وفى نفسه مرارة ، وفى لسانه شكاية . لقد أرسل إلى أحد بنى عمه من ماردين ، يقول وهو بين الأمل واليأس ، معتذراً عن عار الفرار :

صَبْراً عَلَى وَعْدِ الزَّمَانِ وإنْ وَنَى   فَعَسَاهُ يُصْبِحُ تَائِباً مِمَّا جَنَى(١)
لاَ يُجْزِعَنَّــكَ أَنَّهُ رَفَعَ المدَى   فَلَسَوْفَ يَهْدِمُ عَنْ قَلِيلٍ مَا بَنَى

ويقول :

... ليس الفرارُ علىَّ عاراً بَعْدَمَا   شهدُوا ببأسى يومَ مُشْتَبَكِ القَنَا(٢)
إنْ كنت أَوّلَ مَنْ نَأَى مِنْ أرْضِهِمْ   قَدْ كنتُ يومَ الحربِ أولَ مَنْ دَنَا

ثم رحل صفى الدين إلى بنى أرتق وانخرط فى صفوف رجالهم وحاشيتهم ، ورفعوا مكانته وأفاضوا عليه عطاء وهبة ، فانساق إلى مدحهم وأشرق ديوانه بشكر منهم . وبذل لهم الرأى والنصيحة فى أمور دولتهم ، وسجل ذلك فى شعره .

وكان بين هذا وذاك يختلف إلى أصدقائه أو يختلف إليه أصدقاؤه ، فينال من لذة الحياة ومتعها ما شاءت نفسه من مباذل زمانه . ذلك الزمان الذى انتشر فيه استخدام الرقيق غلماناً وجوارى فى البيوت ، وأقبل الناس أو أقبل كثير منهم ، على الشراب والمنادمة وسماع الغناء وما إلى ذلك من مجالس الأنس والسمر . فخب صفى الدين مع هؤلاء ، ونال من ملذات الحياة طرفاً ، وسجل مشاعره إزاء ذلك فى شعره ، فكان مرة غزلا طلياً بالمذكر والمؤنث ، وآنا وصفا للخمر والسقاة والندمان ، وطوراً سعيا إلى مجالس الغناء والمجون ، وحينا استدعاء للأصدقاء لقضاء الليالى الحمراء . وسجل ما استتبع هذه الحياة من قرب وبعد ، ووصل وصد ، وتشوق وأنين ، وتذكر وحنين ، وتوبة ونكوص . وكان هذا تسجيلا صادقاً صادراً من مشاعره وأحاسيسه بعيداً عن التكلف والمراءاة ، تومض خلاله من آن لآن ،

(١) ونى ينى : أبطأ يبطىء .
(٢) مشتبك القنا : اشتباك الرماح وقت الحرب .

خطرات قلبه ونبضات فكره ، حكمة بالغة ، أو مثلا رائعاً ، أو رأياً ناضجاً ، أو نصيحة مجربة ، إلى غير ذلك .

قال يصف مغنّياً :

وَقَدْ تَرَنَّمَ شَادٍ صَوْتُهُ غَرِدٌ ... كَأَنَّهُ نَاطِقٌ مِنْ خَلْقِ شُحْرُورِ (١)

شَادٍ أَنَامِلُهُ تُرْضِي الأَنَامَ لَهُ ... إِذَا شَدَا وَأَجَابَ البَمُّ بِالزِّيرِ (٢)

ويصف حامل الكأس :

وَحَامِلُ الكَأْسِ سَاجِي الطَّرْفِ ذُوهَيَفٍ ... صَاحِي اللَّوَاحِظِ يَثْنِي عِطْفَ مَخْمُورِ (٣)

كَأَنَّمَا صَاغَهُ الرَّحْمَنُ تَذْكِرَةً ... لِمَنْ يُشَكِّكُ فِي الوِلْدَانِ وَالحُورِ

ويصف الخمر فى يده :

يُدِيرُ رَاحاً يَشُبُّ المَزْجُ جَذْوَتَهَا ... فَلَا يَزِيدُ لَظَاهَا غَيْرُ تَسْعِيرِ (٤)

ناراً بَدَتْ لِكَلِيمِ الوَجْدِ آنَسَهَا ... مِنْ جَانِبِ الكَأْسِ لَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ (٥)

ويتغزل فى ساق من الغلمان :

يَطُوفُ عَلَى الرِّفَاقِ مِنَ الحُمَيَّا ... وَمِنْ خَمْرِ الرُّضَابِ بِمُسْكِرَيْنِ (٦)

إِذَا يَجْلُو الحُمَيَّا وَالمُحَيَّا ... شَهِدْنَا الجَمْعَ بَيْنَ النَّيِّرَيْنِ (٧)

---

(١) الشادى : المغنى — صوته غرد : أى كصوت الطائر حين يرفع صوته — الشحرور : طائر غرد .

(٢) الزير : الدقيق من الأوتار أو أحدها . — البم : الوتر الغليظ .

(٣) ساجى الطرف : ساكن العين . — الهيف : ضمر البطن ورقة الخاصرة . — العطف الجانب

(٤) يشب : يشعل .

(٥) الكليم بمعنيين هما المكلوم المجروح ، والذى يبادلك الكلام .وفى الكلمة استخدام . وفى البيت ضرب من الاقتباس .

(٦) الحميا : الخمر — الرضاب : الريق .

(٧) النيران : الشمس والقمر .

وهكذا ترى أن شعره صور أكثر جوانب حياته، كما صور بعض جوانب عصره.

ولكنه — بلا ريب — قد غفل عن تصوير كثير من جوانب هذا العصر. لقد غفل عن وصف هذه الحياة المستبدة الظالمة التى كان يحياها ملوك عصره، حياة التجبر والصلف، وحياة التبذير والسرف، وحياة الفرقة والتنازع، تلك الحياة التى وقعت الشعوب العربية فريسة لها ولم تملك دفع السوء عنها.

لقد خلا شعره من النقد السياسى الذى ربما كانت تكون له عاقبة نافعة فيمن حوله. وخلا شعره من النقد الاجتماعى الإصلاحى الذى يصف العادات الضارة والتقاليد المرذولة فى زمانه — وما كان أكثرها وأفدحها — ومنها ما تفشى فى دواوين الدولة من سرقات ورشوة وطائفية. وما اجتاح حياة الأسر الفقيرة المتوسطة من فقر وجهل ومرض ويأس.

إن شاعراً متواضعاً كشرف الدين البوصيرى المتوفى عام ٥٩٦ هـ، خير فى هذا الباب من صفى الدين وابن نباتة وأضرابهما، ممن غفلوا عن وصف حياة شعوبهم وما يكتنفها من أحداث وملابسات، وما يسومها من ظلم وجور، وما يرهقها من ضرائب ومصادرات، وما يثقلها من حرمان واستغلال. وقنعوا بالتزلف إلى الحاكمين المستبدين والسعى إلى مودتهم والدوران فى فلكهم والتماس فُتاتهم، وبذلك خدعوهم عن أنفسهم وعن حقيقة ما يصنعون، فكانوا بذلك فى جملة الخادعين.

إن البوصيرى أجرأ شعراء تلك الحقبة على تسجيل هفوات قومه شعباً وحكاماً وموظفين. لقد وصف فى صراحة، ما تفشى بين دواوين الدولة من ألوان الفساد ناقداً لها ناعياً عليها، وسجل ما يحيق بالأسر من ضروب البؤس والنزاع. ولو أن رجلا كالحلى أو ابن نباتة، تنبه خاطره إلى مثل ما تنبه إليه البوصيرى لكان لشعره قيمة ونفاسة لا تعد لهما قيمة التاريخ ولا نفاسته.

(ج) صفى الدين بين التقليد والتجديد

صفى الدين الحلى، فى جملته، شاعر مقلد. بمعنى أنه دار فى فلك المتقدمين لفظاً وغرضاً ومعنى وتصويراً. ولكن عند الحديث تفصيلاً لا نرى بدًّا

من أن نشير إلى نواحيه الجديدة ، وأن نبرزها للعيان واضحة قوية . وصفى الدين لم يكن تنقصه المقدرة على التجديد وابتداع الأساليب وابتكار الأغراض مع روعة تصوير معانيه وخيالاته ، لو أنه أراد ذلك وتعمده . فقد كان واسع الحيلة قديراً على اللغة ثريا من اللفظ كثير الترحال والأسفار، مما يكسبه تجربة وخبرة ، ويزيده فراهة وحذقاً . كما كان وثيق الصلات بكثير من علية جيله . ولقد دخل إلى ميدان الشعر حرّ النفس أبيا على التكسب مزهوًّا بقومه وأحسابهم وأنسابهم ، غير فخور بالشعر إلا باعتباره أداة منافحة وسلاحاً من الأسلحة المسنونة ضد الأعداء. وجابهته فى شبابه حوادث قومه ووقائعها مع أعدائها ، فأثارت حماسته ، وأطلقت سوط لسانه . فاندفع ناراً حامية على أعدائه ، متتابع الأبيات متخير اللفظ محدود الهدف ثابت الرمية .

من شأن مثله حينذاك أن يكون مجدداً بفطرته ونشأته . وحسبه مؤديا إلى إلى التجديد إيمانه بدوره الذى يؤديه بلسانه ، بل وبسنانه فى صفوف قومه . وإيمان الشاعر برسالته أقوى دعامة تدفعه إلى التجديد لأنه حينئذ يصدر عن دخيلة نفسه وعن تجاربه الشخصية .

والحق أنك حينما تقرأ حماسيات صفى الدين تشعر أنها له وحده ، انتزعها من بيئته ومن حوادث قومه ومن تأثره بهما . يقول :

لَقَدْ هَذَّبَتْنِى يَقْظَةُ الرَّأْيِ والنُّهَى ... إِذَا هَذَّبَتْ غَيْرِى ضُرُوبُ التَّجَارِبِ (١)

وأَكْسَبَنِى قَوْمِى وأَعْيَانُ مَعْشَرِى ... حِفَاظَ الْمَعَالِى وابْتِذَالَ الرَّغَائِبِ (٢)

سَرَاةٌ يَقِرُّ الحاسِدُونَ بِفَضْلِهِمْ ... كِرَامُ السَّجَايَا والعُلَى والمَنَاصِبِ (٣)

وإلى جانب شعره الحماسى وصدقه ، ترى شعره السياسى فى دولة بنى أرتق. إنه قد يندفع فيه اندفاع السهم إلى الرمية ، لا يلوى على شىء . وتشعر به نابعاً

---

(١) النهى : جمع نهية وهى العقل .

(٢) حفاظ المعالى : المحافظة عليها والتمسك بها – وابتذال الرغائب : هجرها وعدم الاكتراث بها .

(٣) السراة : السادة والرءوس .

من صميم فؤاده وأعماق ضميره ، وتراه فيه يركض ركضاً قويّاً يداور المعنى ويقلبه على جميع صوره البيانية المستطاعة تقريراً له فى النفوس . ومن ذلك أبياته الحكيمة التى جرت مجرى الأمثال حينما أخذ يحرض الملك الصالح على أعدائه المغول ويستنهض همته إلى قتالهم ومدافعتهم وعدم التراخى فى مناجزتهم .

(د) مذهبه فى الشعر وأسلوبه :

سمع أحد الفضلاء شعر صفى الدين فاستحسنه ، وقال : « لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغة الغريبة » . وهو يعنى بذلك ، غريب الكلمات . فكتب إليه صفى الدين قصيدة فى أولها :

إِنّما الحَيْزَبُونُ والدَّرْدَبِيسُ والطَّخَا والنُّقَاخُ والعَلْطَبِيسُ(١)
والحَرَاجِيجُ والشَّقَحْطَبُ والصَّقْـعَبُ والعَنْقَفِيزُ والعَنْتَرِيسُ(٢)
والغَطَارِيسُ والعَفَنْقَسُ والعَفْلَقُ والجِرْبَضِيضُ والعَيْطَمُوسُ(٣)
والسَّبَنْتَى والحَقْصُ والهَيْقُ والهِجْرِشُ والطِّرْفِسَانُ والعَسَطُوسُ(٤)

---

(١) الحيزبون : العجوز أو التى لا خير فيها — الدردبيس : الداهية والشيخ والعجوز الفانية . — الطخا : قصره من الطخاء وهو السحاب المرتفع أو الكرب على القلب . — النقاخ : الماء البارد العذب والنوم والأمن . — العلطبيس : الأملس البراق .

(٢) الحراجيج : جمع حرجوج كعصفور ، الناقة الجسيمة الطويلة . الشقحطب : وزن سفرجل ، الكبش له قرنان أو أربعة كل منهما كشق حطب — الصقعب : الطويل . العنقفيز : قبل : العقفزة أن يجلس الرجل محتبيا ثم يضم ركبتيه وفخذيه . العنتريس : الناقة الصلبة الشديدة — والداهية .

(٣) الغطاريس : جمع غطريس بكسر أوله وهو الظالم المتكبر العفنقس . اللئيم . العفلق : المرأة الخرقاء السيئة المنطق . العيطموس : التامة الخلق من الإبل أو المرأة الجميلة أو الحسنة الطويلة . الجربضيض : قال فى اللسان : الجربض العظيم الخلق .

(٤) السبنتى : الجرىء والنمر وجمعه سبانت . — الحقص : الشد ، يقال : سبقنى حقصاً وقبضاً وشداً كلها بمعنى واحد — الهيق : والهيقم الدقيق الطويل ، وهو الظليم أيضاً ذكر النعام — الهجرش : الهجرشة الناقة الطويلة — الطرفسان : والطرفاس القطعة من الرمل . والظلمة . — العسطوس : بفتحتين فضم ، شجرة كالخيزران تكون بالجزيرة ، ورأس النصارى بالرومية .

obeikandl.com

لُغَـةٌ تَنفِرُ المَسَامِـعُ مِنْها حِينَ تُرْوَى وتَشْمَئِزُّ النفُوسُ
وقبيحٌ أنْ يُذْكَرَ النَّافِرُ الوَحْـــشِيُّ مِنْهَا ويُترَكَ المَأْنُوسُ . . الخ

وقد أصبحت هذه الأبيات فى ألسنة من يتعاطون الأدب كثيرة الذكر . ولا سيما عند الرغبة فى التندر والسخرية بمن يجنحون نحو الغريب .

ولقد رسم الشاعر لنا فى هذه الأبيات طريقته فى نظم الشعر ، وتتلخص فى توخى السهولة والوضوح واستعمال الألفاظ والعبارات المألوفة المتداولة ، والنأى عن الغريب غير المألوف . وقد بين ذلك صراحة فى مقدمة شرح بديعيته ، على نحو ما بينا .

وقد ترسم صفى الدين هذه الطريقة فى شعره . وكانت هذه النزعة هى النزعة الغالبة على أساليب الشعراء فى عصره .

ولكن من الحق أن نذكر أن صفى الدين كان شاعراً واسع المدى بعيد الآفاق . قديراً على تنويع نزعاته فى الأغراض والأساليب . فإذا كان لكل شاعر أسلوب يسمو إلى مستواه ، وقلما يزايله إلا لطارىء عارض ، فإن لصفى الدين مستويات من الأسلوب يستطيع أن يزايل أحدها إلى الآخر عامداً مختاراً متى أراد ذلك . فيسمو إذا شاء السمو ، ويرسب إذا أراد الرسوب .

كان صفى الدين يعيش فى بيئات أعجمية أو غلبت عليها العجمة ، والتاثت فيها العربية التياثاً كبيراً . وانحطت فى الجملة أساليب شعرائها وبعُدت عن الجزالة ، وغلبت عليها الصناعة اللفظية والحلية البديعية ، حتى أصبحت قواعد النقد خاضعة لها ومستمدة منها . وأصبح إتقان هذه الصناعة بقيودها ، معياراً للنبوغ والمقدرة . وبقدر ما ينوّع الشاعر فيها ويبتدع فى قيودها ، ويجيد مراعاة قواعدها ، يقدّر نبوغه ويُشهد له . مع أن هذه القيود قد تبدو كلفا قبيحاً فى وجه الشعر .

فماذا يصنع شاعر كصفى الدين ، يعيش فى هذا المحيط ؟ وهو تواق إلى أن يعرفه معاصروه ويفهموه ويرددوا شعره ليرفعوه إلى المنزلة التى يستحقها . ولا يرموه

بعى أو حصر أو ضيق افتنان . ثم هو حريص كل الحرص على أن يحيي دولة الشعر ويذود عنها الأدعياء الأراذل ، وإن كان لا يتخذ منه مدداً للفخر . . .

وَمَا كُنْتُ أَرْضَى بِالقَرِيضِ فَضِيلَةً وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَرْتَضِيهِ الأَفَاضِلُ
وَلَسْتُ أُذِيعُ الشِّعْرَ فَخْراً وإنما محـــــاذرةً أَنْ تَدَّعِيهُ الأَرَاذِلُ

وهو إلى جانب ذلك قد كوّن له اطلاعه على اللغة وبلاغتها وآدابها معجماً واسعاً من اللفظ والعبارة يعاونه على تصوير معانيه فى غير كلفة ودون مشقة .

تجمعت على صفى الدين — إذن — عوامل دفعته إلى أن يكون متنوع الأسلوب ، يجزل تارة ويرصن ، ويرق مرة ويعذب . ويسهل طوراً ويتضح ، ويُغرب حيناً ويُغمض . ويتقيد آناً بالبديع ، وينفلت من قيوده آناً آخر . وهو فى كل حالاته — أو معظمها — وفى جميع مستوياته — أو جلها — عامد مختار لا يعروه نصب ولا يصيبه جهد ، لأنه قادر بالطبع ، وقادر بالصناعة ، وإن كان من بين ما يصنعه ما يئود قارئه . لذلك ترى له الشعر الرصين الجزل ، والشعر الرقيق السهل . وله الشعر السمح الصادر عن فطرة وطبع سليم ، والشعر المتكلف الذى تثقله مبالغات الصناعة .

والعجيب أنك إذا نشدت شعره الرصين الجزل قد تجده مبالغاً فى رصانته وجزالته حتى يلحق السابقين . وإذا نشدت شعره البديعى قد تجده مغالياً فيه حتى يسبق المعاصرين .

لقد أغرق صفى الدين فى بديعه إغراقاً شديداً فى كثير من شعره . ولو أنه ترك نفسه على سجيتها ، ولم يحملها على وعثاء البديع ومتابعة مناهج عصره فى الأسلوب ، لكان لنا منه شاعر فحل لا يقل فحولة عن المتقدمين .

ودليلنا على ذلك كثير من شعره السمح الذى أشرقت ديباجته وتبلجت عبارته واتسقت موسيقاه وتجلت معانيه .

يقول متغزلاً :

وَلاَحَ كالصَّارِمِ المصقولِ أَخْلَصَهُ ... تَتَبُّعُ القَيْنِ مِنْ شَيْنٍ ومِنْ كَلَفِ (١)
وَجَالَ فى وجْهِهِ ماء الحياةِ كَما ... يَجُولُ ماء الحَيَا فى الرَّوْضةِ الأُنُفِ (٢)
وَوَلَّد الْحُسْنُ فِى أَحْدَاقِهِ حَوَراً ... وضَاعَفَ الدَّلُّ مَا بالجِسْمِ من تَرَفِ (٣)
أَضْحَتْ بِهِ حَدَقُ الحُسَّادِ مُحْدِقَةً ... تَرْنُو إليه بِطَرْفٍ غيْرِ مُنْطَرِفِ (٤)
وَظَلَّ كُلُّ صَدِيقٍ يَرْتَضِى سَخَطِى ... فِيهِ وكُلُّ شَفِيقٍ يَرْتَجِى تَلَفِى
يا لِلرِّجَالِ أَمَا لِلْحُبِّ مُنْتَصِرٌ ... لِضَعْفِ كُلِّ مُحِبٍّ غَيْرِ مُنْتَصِفِ
مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْلَا أَنَّ سَالِكَهُ ... يُمْسِى لِأَسْهُمِ كَيْدِ النَّاسِ كالهدفِ

هذا شعر رقيق جزل فى آن. عذب سائغ . قل بديعه وخف ، فلح ولطف . ولو نسج صفى الدين دائماً على هذا المنوال ، لبرئ مجموع شعره من كلفه ، وسلم من تعسفه . ولكنه — كما ذكرنا — أغرق فى بديعه إغراقاً شديداً ، وإغراق العامد القادر المختار الذى أراد أن يتفوق على أقرانه فى هذا الميدان ويشآهم فيما أولعوا به من شعر الصنعة . فجنَّس وطابق واقتبس وضمن . وقابل ونشر وطوى وقسم ، وتعمد التشبيه والاستعارة . وتلاعب بالحروف ، فأهمل وأعجم ، والتزم ما لا يلزم . وبنى قصيدته أحياناً على لفظ واحد يردده فى روى كل بيت مع اختلاف المعنى . إلى غير ذلك من ضروب البديع .

ثم أليس هو السابق إلى ابتكار البديعيات ، وناظم أول بديعية . ثم أليس هو مخترع لزومياته فى الأرتقيات . وإليك أمثلة من تكلفاته :

---

(١) الصارم : السيف — أخلصه : جعله خالصاً أى أجاد صناعته —

(٢) الروضة الأنف : البستان الذى لم يرع أى لم تؤخذ ثماره ولا أزهاره ونباته .

(٣) الأحداق جمع حدقة وهى سواد العين ويريد العين — الحور : شدة بياض العين مع شدة سوادها . — الدل : الدلال التدلل وهو أن المرأة تجرؤ على زوجها كأنها تخالفه وليس بها خلاف . الترف : طغيان النعمة . والمراد بها لين الجسم ورقته .

(٤) محدقة : محيطة — والطرف العين — المنطرف : المغمض .

قال فى الجناس الخطى وهو الذى يتشابه فيه كل لفظين متجاورين فى رسم حروفهما وقد يختلفان فى الحركة والنقط :

سَلْ سَلْسَلَ الرِّيقِ لِمْ لَمْ يَرْوِ حَرَّ ظَمَا ... بَلْ بَلْبَلَ القَلْبَ لَمَّا زَادَه أَلَمَا[1]

قَدْ قَدَّ قَدُّ حَبِيبِي حَبْلَ مُصْطَبَرِي ... إِنْ آنَ أَنْ أَجْتَنِي جُرْمًا فَلَا جَرَمَا. الخ[2]

ويلاحظ فى البيت الأول أن بكل شطر من شطريه لفظين أحدهما نصف الآخر . وقد تكرر مثل ذلك فى غيره من أبيات القصيدة التى بلغت خمسة عشر بيتاً .

ومن أبيات له مهملة الحروف — غير منقوطة — :

كَمْ سَاهِرٍ حَرَّمَ لَمْسَ الوِسَادْ ... وَمَا أَرَاهُ سُؤْلَهُ وَالْمُرَادْ

مَا سَهَرُ الوَالِهِ مُعْطٍ لَهُ ... وَصْلاً وَلَوْ دَاوَمَ طُولَ السُّهَادْ.. إلخ

ومن أبيات له متصلة الحروف :

سَلْ مُتْلِفِي عَطْفاً عَسَى يَتَعَطَّفُ ... فَلَقَدْ قَسَا قَلْباً فَمَا يَتَلَطَّفُ

ظَبْيٌ تَحَكَّمَ بِي فَسَلَّطَ جَفْنُهُ ... سُقْماً لِجِسْمِي بَعْضُهُ لِي مُتْلِفُ... إلخ

وقد بلغ به فرط تلاعبه بالحروف والكلمات أن كان يُدخل فى أبياته كلمات تركية أو فارسية ، مع قدرته على استخدام مرادفها العربى . وكان ذلك ليستغل هذا المرادف فى بعض معانيه الماجنة ، مع التعمية باللفظ التركى أو الفارسى .

ونظم قصيدة حشاها — مع طولها — بعشرات من الكلمات الأعجمية يصف فيها ألاعيب طائفة الغرباء المحتالين الملقبين « بآل ساسان » ، وتسمى هذه القصيدة « الساسانية » .

ليس معنى ذلك أن شعره البديعى التاث كله . بل إن ما التاث إنما هو جزء منه فحسب ، بدا كالكلف فى صفحة البدر ، وكالغثاء فى مجرى السيل .

---

(١) السلسل : الماء العذب والخمر اللينة . — وبلبله : هيجه وحركه .

(٢) الجرم : بضم أوله الجريمة والذنب . ولا جرم : حقاً ، ولا بد .

ومن أشعاره البديعية ما رق وراق ، وحلا فى المذاق . فمن جناسه مثلا :

حَدِيثُ النَّاسِ أَكْثَرُهُ مُحَالٌ   وَلَكِنْ لِلمدَى فِيهِ مَجَالُ

ومن طباقه :

الوَجْهُ مِنْكِ عَنِ الصَّوَابِ يُضلنى   وإذا ضَلَلْتُ فإنه يَهْدِينى[1]
وتُمِيتُنِي الألحاظُ مِنْكِ بنظْرةٍ   وإذا أردتِ بنظرةٍ تُحْيينى

ومن تضميناته :

زُوِّجَ الماء بابْنَةِ العُنقودِ   فَانْجَلَتْ فى قلائدٍ وعُقُودِ
قُتِلَتْ بالمِزَاجِ ظُلْماً فقالتْ   « كم قتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ »[2]

ومن اقتباساته :

قُلُوبُنَا مُودَعَةٌ عِنْدَكُمْ   أَمَانَةٌ يُعْجِزُ عَنْ حَمْلِهَا
إنْ لمْ تَصُونُوهَا بِإحْسَانِكُمْ   « أدُّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا »[3]

وهكذا ، على أن صفى الدين كان أكثر احتفالاً بالجناس من ابن نباتة مثلا ، كما أنه لم يُجِد إخراج التورية كما أخرجها ابن نباتة . مع أن التورية كانت أرفع أصباغ البديع وأثمنها لدى أدباء العصر . قال ابن حجة الحموى[4] : « إن الشيخ صفى الدين كان أجنبيا فيها — يعنى التورية — ولهذا لم أنظمه فى سلك الجماعة الذين مشوا فى نظم التورية تحت العلم الفاضلى[5] والعلم النباتى[6] . وغايته أنه رضى بالشعر الساذج المنسجم . وتعرض إلى التورية فى بعض المواضع ولكن

---

(١) الطباق بين يضل ويهدى — وبين تميت وتحيى .

(٢) قوله : كم قتيل . . . إلخ من كلام المتنبى .

(٣) وقوله أدوا الأمانات . . . إلخ اقتباس من كلام القرآن الكريم .

(٤) انظر كتابه « كشف اللثام » .

(٥) يقصد طريقة القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى .

(٦) يقصد طريقة ابن نباتة المصرى .

obeikandi.com

سبكها فى غير قوالبها لأنها لم تكن فى طباعه » .

وابن حجة كان ناقداً متعصباً للتورية ولطريقتى الفاضل وابن نباتة فيها . وينعى على الجناس والمولعين به ، إلا إذا امتزجت به التورية وأخرجا مخرجاً واحداً فى لفظ يجتمعان فيه .

وفى جملة ما عاب شعر صفى الدين — مع رسوخ قدمه فى اللغة والبلاغة — ما وقع فيه من أخطاء لغوية ، وما أكثر منه من الضرورات الشعرية ، وما انساق إليه من حشو أو ضعف نسج ، ونحو ذلك ، مما لا يسلم منه شاعر ، وبخاصة من شعراء زمانه . فن ذلك قوله :

أَوْمَتْ إِلَىَّ مُشِيرَةٌ أَنْ لاَ تَخَفْ   وابْشِرْ فإِنَّكَ فى ذُرَا العَلْيَاءِ

وفى البيت سهل همزه « أومأت» ثم حذف الألف كأن الفعل معتل الآخر . وفيه أيضاً وصل همزة « أبشر » وهى همزة قطع . وقال :

بُعْدُ الوَفِىِّ كَقُرْبِهِ إِذْ وُدُّهُ   بَاقٍ كَمَا قُرْبُ المَلُولِ كَبُعْدِهِ

وفى البيت ضعف نسج أدى إلى غموض معناه أو إلى ضيقه عن أداء المعنى والشاعر يريدالقول إن الوفى ملخص فى قربه وبعده لأن وده باق فى الحالتين. ولهذا يتساوى بعدُه وقربُه . وإن الملول غير مخلص فى بعده أو قربه لأنه ضئيل الود فى الحالتين ولهذا يتساوى أيضاً قربه وبعده .

(هـ) أوزانه وقوافيه

طرق صفى الدين بحور الشعر العربية المتداولة المأثورة ، كاملة ومجزوءة . ونظم منها أكثر قصائده الطويلة والقصيرة ، ومقطعاته .

وقد احتفل بعض الاحتفال بالتسميط والتوشيح والرجز . ولم يخرج فى جملتها عن الأوزان المذكورة ، مع تنوع قوافيها .

ومن تسميطه — على سبيل المثال — مسمطته التى ضمنها أبياتاً من قصيدة السموءل التى مطلعها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤمِ عِرْضُه فكلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ[1]

ومسمطته التي ضمنها أبياتاً لقطرى بن الفجاءة التي منها :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِي[2]

ومسمطته التي رثى بها الملك المؤيد صاحب حماة ، والتي ضمنها أبياتاً من قصيدة ابن زيدون التي مطلعها :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

ومن مسمطته هذه قوله :

كَانَ الزَّمَانُ بِلُقْيَاكُمْ يُمَنِّينَا وَحَادِثُ الدَّهْرِ بِالتَّفْرِيقِ يَثْنِينَا
فعِنْدَمَا صَدَقَتْ فِيكُمْ أَمَانِينَا أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا
وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

والتسميط — كما رأيت — زيادة ثلاثة أشطر أولى قبل شطرى البيت المضمن ، من وزنه ومن روى شطره الثانى .

ومن توشيحه — على سبيل المثال أيضاً — موشحته التى مدح بها الملك المنصور الأرتقى ومطلعها :

خُذْ مِنَ الدَّهْرِ لِى نَصِيبْ وَاغْتَنِمْ غَفْلَةَ القَدَرْ
لَيْسَ طولَ المَدَى تُصِيبْ صَفْوَ عَيْشٍ بِلاَ كَدَرْ
فاجلُ لِى كاعِباً عروسْ لَمْ تَرُعْهَا يَدُ المِزَاجْ[3]
نَشْرُهَا عِطْرُ الكُئُوسْ وكَسَا نورُها الزجاجْ ... الخ

---

(١) العرض : كل ما يجب على المرء حمايته .

(٢) طارت نفسه شعاعاً : تفرقت جزعاً — ويحك : كلمة رحمة . لن تراعى : لن تخافى ولا تجزعى .

(٣) الكاعب : التى كعب وبرز نهدها ، وهو هنا يشبه بها الخمر . المزاج : الخلط والقتل بالماء .

obeikandi.com

وموشحته التى مدحه بها أيضاً ووصف فيها رحلة صيد وما فيها من الأطيار . وموشحته التى مدح بها الملك الأفضل بن المؤيد صاحب حماة . ووصف فيها رحلة صيد معه — أيضاً — وما فيها من الأطيار .

والتوشيحات لها نظم كثيرة وقصاراها تنوع قوافيها على شكل من الأشكال ، مع توافق ما ، بينها.

وتتجلى عنايته بالرجز فى أراجيزه المتعددة التى وصف فيها البازى والصقر والفهد والكلب ، والصيد بها جميعاً . وأرجوزته فى وصف ليلة قضاها بمصاحبة جواده . وأرجوزته فى وصف يوم قضاه فى صيد النعام .

على أن صفى الدين حرر نفسه بعض التحرير من قيود الوزن والقافية المرعية ، وذلك فى قليل من المناسبات ، فلفق فيها بين بعض الأوزان ، أو خرج عليها جملة .

ومن ذلك موشحة مدح بها الصالح الأرتقى وهنأه بعيد الفطر عام ٧٤١ ﻫ . قال فى مطلعها :

لما شَدَتِ الوُرْقُ عَلَى الأغْصَانْ بَيْنَ الوَرَقْ(١)
مَاسَتْ طَرَباً بِها غُصُونُ البَانْ كالْمُغْتَبِقْ(٢)

ومن ذلك موشحة نظمها من الدوبيت ، وهى غزلية قال فى مطلعها :

عَيْنُ حِبِّى أعيذها باللهِ مَا أَوْقَعَنِى فى عِشْقِهِ إلاَّهِى
مُذْ قَاطَعَنِى وَصَدَّعَنِّى لاَهِى أَجْرَى عَبْرَتِى وأَذْكَى زَفْرَتِى(٣)
أمسَيْتُ وطِيبُ النومْ عَنْ أجْفَانِى فَانِى
لَمَّا تجَافَانِى أرْعَى النُّجومْ(٤)

وعلى هذا النسق سار فى بقية الموشحة .

---

(١) الورق : الحمائم . (٢) المغتبق : شارب خمر المساء .
(٣) أذكى زفرتى : نشرها وكثرها .
(٤) أرعى النجوم : كناية عن السهر .

obeikandi.com

ومن ذلك أيضاً موشحة اخترع وزنها واقترحه عليه السلطان المؤيد صاحب حماة ، امتحاناً لمقدرته فقال :

بِي ظبيٌ حَمَى وَرْدَ خدِّه صارمُ اللَّحْظِ ... قَاسٍ غرَّنِي مِنهُ رِقَّةُ الخدِّ واللَّفْظِ[1]
ذُو فرْعٍ بِمَحْضِ اعتناقِ أردافِهِ مَحْظِى ... مَالِي لَمْ أنَلْ حَظَّهُ كمَا قدْ حَكَى حَظِّى[2]
بديعُ المعانِي مِنَ الأقْمارْ ... أحسنْ
إلينَا أسَا لحظُهُ واللفظْ ... أحسنْ[3]

وعلى هذا النسق أيضاً سار فى بقية موشحته . ووزنها ملفق ، كما ترى ، من أوزان عدة .

(و) فنون شعره

قسم صفى الدين ديوانه إلى اثنى عشر باباً ، فى كل منها فصلان أو أكثر . ومجموع فصوله ثلاثون . وكل فصل فى فن على حدة . فجملة فنونه ثلاثون فنا أو غرضاً . وقد سبق لنا الإشارة إلى هذه الأبواب .

غير أننا نريد هنا القول إنها فى جملتها تنطوى تحت سبعة فنون رئيسية هى : الفخر والحماسة . والمدح ومنه المديح النبوى . والغزل ومنه المجون . والوصف ومنه الطرديات والزهريات . والإخوانيات ومنها الشكوى والعتاب ونحوهما . والرثاء . والآداب ومنها الزهديات والحكم . وما عداها تبع لها . ويكفى هنا أن نتحدث عنها وإليك وجازات عن كل منها :

١ ــ الفخر والحماسة

يعدّ صفى الدين فى مقدمة شعراء الفخر والحماسة . وقد أشرنا إلى الأسباب التى نشأته هذه التنشئة ، ودفعته إلى هذا الميدان ، فسلكه رحباً فسيحاً وهو فى

---

(١) صارم اللحظ : اللحظ الشبيه بالسيف .
(٢) ذو فرع : له ضفائر من الشعر .
(٣) أسا : أصله أساء حذف الهمزة للضرورة . وبالبيت طباق بين أساء وأحسن .

بواكير شبابه . ومنها حسبه ونسبه ومحامد قومه ومجادة أخواله وأعمامه، وحوادث قبيلته ووقائعها . لقد فخر صفى الدين بهذا وملأ أبياته بوصف هذه الوقائع وما جرى فيها من اشتباكات مع أعداء قومه وما دعاهم به إلى الثأر لقتل خاله . وفخر بجوار ذلك ، بفروسيته ومقدرته على حمل السيف وركوب الخيل ومصاحبة الليل واختراق الصحراء . كما وصف هذه الأشياء فى جملة أبياته الحماسية ، وشاد بذكر أسفاره وارتحالاته فى سبيل المجد وكسب المحامد ، وصبره وإبائه الضيم وترفعه عن منازل الذل والضعة .

وفخر بشعره أيضاً وبقلمه . ولكن شعره كان آخر ما فخر به ، فلم يتخذه فضيلة يعتمد عليها ، بل ربأ بنفسه عن أن يكون شعره وسيلة لكسب أو أداة لعيش أو سلماً إلى مجد . ولا سيما أن بعضهم أجل قدره عن نظمه . . .

وردد صفى الدين هذه المعانى جميعها فى قصائده الحماسية — وله فى الحماسة قصائد مستقلة — وفى غيرها وفى مدائحه للملوك ، حتى إنه كان أحياناً يفرّق ، وهو ببابهم ، ما يمنحونه من العطاء لقاء شعره ومدحه ، فيكسب بذلك محمدة هى أغلى لديه من العطاء نفسه .

وعلى الرغم من أن الأيام باعدت بينه وبين أسباب فخره ، وأرغمته على العيش بجوار الملوك مدّاحاً ، لم ينس قط طول حياته أن يفتخر بها ويردد ما كان يردده من قبل .

انظر إليه يقول عن شعره :

لَقَدْ نَزَّهَتْ قَدْرِى عَنِ الشِّعْرِ أُمَّةٌ ... وَلاَمَ عَلَيه مَعْشَرِى وَبَنُو أَبِى

وَمَا عَلِمُوا أَنِّى حَمَيْتُ ذِمَارَهُ ... عَنِ العارِ لَمْ أَذْهَبْ بِهِ كُلَّ مَذْهَبِ (١)

وَمَا عَابَنِى نَظْمُ الْقَرِيضِ وَمَذْهَبِى ... رَفِيعٌ وَقَلْبِى فِى الْوَغَى غيرُ قُلَّبِ (٢)

أَقُولُ وفِى كَفِّى يَرَاعٌ وَتَارَةً ... أَقُولُ وَسَيْفِى فِى مَفَارِقِ أَغْلَبِ (٣)

---

(١) الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته .

(٢) الوغى : جلبة الحرب — والقلب : بتشديد اللام كثير التحول .

(٣) اليراع : القلم — الأغلب الأسد ويريد الشجاع .

٢ — المدح ومنه المديح النبوى

مدح صفى الدين الملوك والأمراء وبعض الأعيان والرؤساء والأصدقاء الذين وصلت بينه وبينهم الأيام . وفى مقدمتهم ملوك بنى أرتق وأمراؤهم وملكا حماة والناصر بن قلاوون وعلاء الدين بن الأثير ، على نحو ما بينا .

وقد عرفنا طرفاً من أسباب اتصاله بهم والعوامل التى دفعته إلى مدحهم . وأشرنا إلى أنه لم يتخذ المديح وسيلة إلى التكسب والارتزاق . وأنه إنما مدح مكافأة للممدوح لقاء عطائه أو هبته أو مودته .

ومعانيه هنا معان مطروقة فى جملتها ، ومنها وصف الممدوح بالكرم والشهامة والشجاعة والنجدة وإخافة الأعداء ، ومواتاة الزمان له ، وخضوع الأيام لمشيئته ، وأنه صدر المجلس ، ومرهف كالسيف ، وشجاع كالأسد وثابت كالطود وكريم كالبحر ، إلى غير ذلك من المعانى .

غير أنه ينبغى لنا أن نشير إلى أن صفى الدين ترفق أحياناً فى إخراج هذه المعانى ، فأبرزها فى أثواب بيانية قشيبة قد يكون له فيها شىء من التهذيب والتجديد.

ويبدو لك ذلك بخاصة ، إذا ألح على معنى بعينه فقلبه على جميع صوره البيانية المحتملة ، وأبرزه بوجوه عدة يبدو للمرء أنه ليس وراءها وجه آخر .

ولصفى الدين فى المديح النبوى — عدا بديعيته « الكافية » — ثلاث قصائد طلية . ولكنه لم يخرج فيها جملة عما عُرف فى السيرة النبوية الكريمة ، وعن الأوصاف الشريفة المأثورة ، مما ورد فى بردة البوصيرى ونحوها .

٣ — الغزل

لصفى الدين قصائد فى الغزل مستقلة ، ومقطعات وأبيات . وكثيراً ما قدم الغزل بين يدى المديح فى مفتتح القصائد على سنة القدماء .

وهو فى كل ما نظم فى الغزل لم يصدر عن عاطفة أصيلة مشبوبة ، ولا عن حب صادق عميق . وإنما كان الدافع هو تمرين القريحة أحياناً ، أو الرغبة فى التسلية . غير أنه مما لا أرتاب فيه أن صفى الدين كان مكباً — ولو إلى حد — على

متع الحياة ولذاتها ، وكان حريصاً على أن يكون له من مباهجها نصيب ، وكانت أسبابها قائمة من حوله ، فمن جواروقيان ، إلى سقاة وندمان ، إلى مجالس طرب حافلة ، ومحافل أنس آهلة ، مما لا تخلو منه قصور الملوك والأمراء والرؤساء وأعيان الناس . وقد بلغ صفى الدين من الاتصال بهم حظاً موفوراً ، مما يثير العاطفة ويذكى الرغبة . ولكنها العاطفة العارضة العاجلة التى تشبها الفرصة السانحة لينال المرء نصيبه منها . فإذا ولت تركت ذكريات لطيفة حبيبة ، وترقباً لفرصة أخرى جديدة ، وهكذا دواليك . وقد بدا صدى هذه الحياة الزاخرة ، فى شعر صفى الدين غزلا فى المذكر والمؤنث على السواء ، ووصفاً لليالى الحمر التى قضاها بين ملذاته . وقد انساق صفى الدين وراءها حتى مجن وزاد مجونه ، وتبذل وفجرت مباذله ، وانحدر إلى الأدب المكشوف والأوصاف الفادحة ، مقلداً ابن حجاج شاعر العراق الماجن المشهور ، وعارضه فى بعض قصائده الفاضحة . وخصص فصلا من فصول ديوانه لغزله بالمذكر غزلا متوجاً باسم محابيبه . . ومزج غزلياته أحياناً بخمرياته مزجاً معجباً ، ووصف ما يصاحبها من ندمان وشداة وراقصات وكئوس وزجاجات وما إلى ذلك ، وربما كان هذا فى أسلوب قصصى طريف . وربما قدم خمرياته بين يدى مدائحه ، كما كان يقدم الغزل .

وجمع صفى الدين بين الغزل النفسى والحسى . فكما وصف القرب والبعد ، والوصل والصد ، والسهر والدمع ، وصف العيون الساحرة والجفون الفاترة الباترة ، والخدود الناعمة ، والنهود القائمة ، والأعطاف المائلة والأرداف الحافلة ، وما إلى ذلك . . ولكن غزله النفسى أربى وأكثر ، وأملح وأسحر .

ومن غزله ، وفيه نزعة نفسية :

لَوْلاَ الْهَوَى مَا ذَابَ مِنْ حَنِينِهِ ... صَبٌّ أَصَابَتْهُ عُيونُ عِينِهِ (١)

مُتَيَّمٌ لاَ تَهْتَدِى عُوَّادُهُ ... إِلاَّ بِمَا تَسْمَعُ مِنْ أَنِينِهِ (٢)

---

(١) العين : جمع أعين وعيناء . ويطلق على بقر الوحش ، لسواد عينه وسعته وهو هنا على التشبيه يريد الحسان .

(٢) المتيم : الذى تيمته المرأة أى عبدته وذللته .

أَصْبَحَ يَخْشَى الظَّبْيَ فِي كِنَاسِهِ وَلاَ يَخَافُ اللَّيْثَ فِي عَرِينِهِ[١]
يَعْتَذِرُ الرُّشْدُ إِلَى ضَلاَلِهِ وَيُقْرَأُ الْعَقْلُ عَلَى جُنُونِهِ
لا تَحْسَبُوا مَا سَاحَ فَوْقَ خَدِّهِ مَدَامِعا تَسْفَحُ من جُفُونِهِ[٢]
وإِنَّمَا ذَابَ جَلِيدُ قَلْبِهِ فَطَرْفُهُ يَرْشَحُ مِنْ مَعِينِهِ[٣]

٤ — الوصف

ربما كان الوصف أوسع أبواب شعره وفنونه . ذلك لأن شعر صفى الدين قائم فى جملته على إتقان الصورة وجمال إخراجها ، وذلك باستعمال الأداة البيانية المناسبة . فالوصف بذلك دعامة أولى من دعائم شعره .

غير أننا هنا نقصد الوصف بأضيق معانيه وآفاقه ، وباعتباره فنا مستقلاً من فنون الشعر ، وذلك حينما يتناول مناظر الطبيعة وأجزاء البيئة وأدواتها ومكملاتها. لقد برع صفى الدين فى ذلك براعة ملموسة تدل على دقة حسه وعمق صلته بمحتويات بيئته ، وشدة تأثره بما تقع عليه عينه .

لقد وصف الطبيعة وما تحتوى عليه من أشجار وأزهار وأطيار وأنهار ووديان وجسور ومدن وأحراج ، ووصف الصيد بالبندق والخروج له وما يتبعه من بزاة وصقور وكلاب . ووصف الكراكى والخيل والقوس والسيف والترس ، ووصف الأعواد وأدوات الغناء والمغنين والألحان ، ومجالس الأنس والراقصات والشموع ، وأجاد فى وصف الخمر وأدواتها ، ونعت الفصول والشهور والليل الطويل وأيام اللهو ، إلى غير ذلك .

وقد ترى أبياته الوصفية — فى وصف خمر أو منظر طبيعى مثلا — فى مقدمة مدائحه ، أو خلالها ، غير أن للوصف عنده قصائد مستقلة ، وأراجيز خاصة .

---

(١) كناس الظبي : بيته . وعرين الليث غابه .
(٢) تسفح : تسيل وتنصب .
(٣) الجليد : القوى الصلب الشديد أو الثلج . والمعين : مجرى الماء .

قال يصف إبريق الشراب :

وإبْرِيقٍ لَهُ نُطْقٌ عَجِيبٌ إذا مَا أُرْسِلَتْ مِنهُ السُّلَافُ(١)
كَفَأْفَاهٍ تَلَجْلَجَ فِى حَدِيثٍ يُرَدِّدُ لَفْظَهُ والفاءُ قافُ(٢)

وقال فى مغنية بالعود :

خَودٌ شَدَتْ بِلِسَانِها وَبَنَانِها حَتَّى تَشَابَهَ ضَرْبُها وَنَشِيدُهَا(٣)
فَكأَنَّ نَغْمَةَ عُودِها فى صَوْتِهَا وكأَنَّ رِقَّةَ صَوْتِهَا فِى عُودِهَا

وقال فى فرس أدهم محجل :

وأَدْهَمٍ يَقَقِ التَّحْجِيلِ ذِى مَرَحٍ يَمِيسُ مِن عُجْبِهِ كَالشَّارِبِ الثَّمِلِ(٤)
مُطَهَّمٍ مُشْرِفِ الأُذْنَيْنِ تَحْسَبُهُ مُوَكَّلاً باستراقِ السَّمْعِ مِنْ زُحَلِ(٥)
رَكِبْتُ مِنه مَطَا لَيلٍ تَسِيرُ بِهِ كَوَاكِبٌ تُلْحِقُ المحمولَ بالحَمَلِ(٦)
إذا رَمَيتُ سِهَامِى فوقَ صَهْوَتِهِ مَرَّتْ بِهَادِيهِ وانْحَطَّتْ عَلَى الكَفَلِ(٧)

٥ ــ الإخوانيات

نعنى بها أشعاره التى دفعت على نظمها، علاقاته القلبية بأصدقائه ، وصلاته الودية بإخوانه . وقد امتلأ ديوانه بهذه الإخوانيات ، نتيجة لضخامة علاقاته هذه وكثرة خلصانه ، ومنهم من كان بالحلة، أو بغداد، أو مكة أو القاهرة أو دمشق أو ماردين أو غيرها . ولهذا كان كثيراً ما يتراسل وإياهم بهذه الأشعار يرسلون إليه

(١) السلاف : الخمر .
(٢) الفأفاء : الذى يردد حرف الفاء كثيراً فى كلامه . ــ تلجلج : اضطرب وتردد فى كلامه .
(٣) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة .
(٤) الأدهم : الأسود ــ اليقق : بفتح وسط أو كسره ، الشديد البياض . التحجيل : بياض القوائم ــ يميس : يميل عجباً ــ الثمل : السكران .
(٥) المطهم : السمين والنحيف ضدان . والمراد هنا النحيف الجسم الضامر . مشرق الأذنين مرفوعهما . ــ زحل : نجم .
(٦) المطا : الظهر . الحمل : منزلة من منازل الشمس .
(٧) الصهوة : المتن والظهر . ــ الكفل : العجز . ــ الهادى : العنق .

فيجيبهم ، أو يرسل إليهم فيجيبونه . وقد يقدم إليهم هذه المراسلات بمشهيات من الغزل أو الخمريات أو نحوهما .

وقد تناول فى رسائله الشعرية هذه كثيراً من نواحى حياته ونواحى نفسه ، فوصف فيها إقاماته وترحلاته ، وذكر أشواقه ، وبث آماله ، وقدم شكواه ، كما شكر ومدح وقارض الثناء . وعاتب وصفح ، واعتذر واستغفر ، واستهدى واستدعى ، وداعب وماجن وتفكه ، ولا غز وحاجى ، وهنأ وعزى ، إلى غير ذلك. كما تناول بعض نواحى أصدقائه . فإن خاطب — مثلا — عالماً ذكر العلم وما إليه ، وإن خاطب منشئاً وصف القلم والكتابة . وهكذا .

وقد تفرقت إخوانياته هذه بين جملة أبواب فى ديوانه ، فمنها فى باب الإخوانيات ، وباب الشكوى والعتاب ، وباب الهدايا والاعتذار ، وباب الألغاز وغيره ، وما يتصل بكل باب منها . طوراً قصائد برمتها ، وطوراً مقطعات فى صدور رسائل منثورة .

ومما كتبه إلى الشيخ مهذب الدين محمود بن يحيى النحوى الحلى ، قصيدة أرسلها إليه من ماردين يتشوق ويصف فيها حال مقامه بها ، وإقبال سلطانها عليه وفى مطلعها :

أَخِلاَّىَ بالفَيْحَاءِ إِنْ طَالَ بُعْـــدُكُمْ
فَأَنْتُمْ إلى قَلْبى كَسَحْرِىَ مِنْ نَحْرِى[1]
وإِنْ يخلُ مِنْ تَكْرَارِ ذِكْرِى حَدِيثُكُمْ
فَلَمْ يَخْلُ يوماً مِنْ مَدِيحُكُمُ شِعْرِى . . .

وكتب قصيدة إلى صاحبه مجد الدين بن شيخ التل ببغداد ، وكان قد واعده بالاجتماع بمدينة إياس ، وتأخر عن السفر إليها . فمنها :

يَا خَلِيلِى مِنْ دُونِ كُلِّ خَلِيلٍ وَأَنِيسِى مِنْ دُونِ أَهْلِى وَنَاسِى

(١) الفيحاء : يريد الحلة بلده . — السحر : الرئة — والنحر : أعلى الصدر وموضع القلادة من العنق .

لاَ تَكُنْ نَاسِيًا لِعَهْدِى فَإِنِّى   لَسْتُ مَا عِشْتُ لِلعُهُودِ بِنَاسِى

٦ — الرثاء

هذه الحياة التى عاشها صفى الدين ، وهذه الصلات المتعددة التى اتصلها . أوجبت عليه أداء فريضة الرثاء عند حلولها ، وفاء للأيدى الكريمة التى رحبت به ، وجزاء للقلوب الرحيمة التى وادته وأحبته . فكان رثاؤه مظهراً نبيلا من مظاهره النفسية . والرثاء فن أصيل من فنون صفى الدين .

وفى ديوانه نحو ثلاثين قصيدة طلية ، رثى بها أو عزى ، بعض من وردت أسماؤهم فى أطوار حياته . لقد رثى الملك المنصور الأرتقى وبعض أمراء بيته . ورثى الملك المؤيد صاحب حماة وعزى فيه ابنه الأفضل . ورثى الأمير ركن الدين إسحق بن بهادر المنصورى ، ورثى قاضى قضاة ماردين شمس الدين عبد الله بن المهذب ، ورثى صديقه الشهاب محمود الحلبى .

وأجزع رثاء له هو رثاء خاليه صفى الدين بن محاسن الذى قتل غيلة فى مسجده . وجلال الدين بن محاسن الذى قتل فى بعض وقائع أعدائه . أما مثار الجزع فالقرابة والنسب وصلة الدم والخطب المشترك ، والحقد على العدو . وعدم البلوغ فى أخذ الثأر إلى أقصى غاياته .

ودار صفى الدين فى معانى مراثيه وتعازيه فى فلك القدامى ، وقصاراه البكاء والتفجع على المرثى وبيان صفاته والإشادة بمحامده ، واستخراج العبرة والحكمة خلال ذلك ، والنعى على الزمن الغادر والدنيا الخئون .

٧ — الأدب والحكمة

لصفى الدين أبيات قليلة ومقطعات وجيزة فى الآداب والحكم وفى الزهد والتقشف ، ولم يكن صفى الدين صاحب حكمة يقعد لها ، ولا ضارب مثل يتعمده ، ولا كان مشرعاً يفكر فى الفضيلة والخلق الكريم ويقنن لهما ويشرع . لذلك وجزت أبياته وصغرت مقطعاته فى هذا الباب .

غير أن صفى الدين كان ذا استعداد طيب لصوغ الحكمة وتصوير الفضيلة لو أن ظروف حياته واتته فى هذه السبيل . وذلك لأنك تراه — مثلا — إذا حرض

أو مدح أو رثى أو وصف ، يجنح أحياناً إلى الكلمة الشاملة والعبارة العامة التى يصدق معناها ويسمو هدفها . ينتزعها من المناسبة ، فتصير حكمة رائعة أو نصيحة جامعة ، أو نحو ذلك .

وتثوب إليه نفسه من مباذلها أحياناً ، فيعاف الدنيا ويزهد فيها ويفىء إلى الله سبحانه وتعالى فيسأله العفو والمغفرة من ذنوبه .

فمن نصائحه المشهورة يحث على تعلم اللغات :

بِقَدْرِ لُغَاتِ المَرْءِ يكْثُرُ نَفْعُه ... فتِلْكَ لَهُ عِنْدَ المُلِمَّاتِ أعْوَانُ

تَهَافتْ عَلَى حِفْظِ اللُّغَاتِ مُجَاهِداً ... فكلُّ لِسَانٍ فى الحقيقةِ إنسانُ

ومنها فى الأسفار :

تغَرَّبْ وَابغِ فِى الأسْفَارِ رزْقاً ... لِتَفْتَحَ بِالتَّغَرُّبِ بَابَ نُجْحِ

فلَنْ تَجِــدَ الثَّرَاءَ بِغَير سَعْيٍ ... وَهَلْ يُورَى الزناد بغــير قَدْحِ (١)

ومنها فى مخاطبة الجليس :

اِسْمَعْ مُخَاطَبَةَ الْجَلِيسِ وَلاَ تَكُنْ ... عَجِلاً بِنُطْقِكَ قَبْلَمَا تَتفَهَّمُ

لمْ تُعْطَ مَعْ أُذْنَيْكَ نُطْقاً واحِداً ... إلاَّ لِتَسْمَعَ ضِـعْفَ مَا تَتَـكَلَّمُ

٤ ــ مبادئه

مثل صفى الدين الحلى كمثل أكثر شعراء العربية لا يدين بمبدأ اجتماعى خاص ، ولا يذهب فى الحياة مذهباً محدوداً مبنيًّا على حسن نظر ودقة بحث وعمق فكر وصحة استنباط ، مع الإيمان به والانتفاع باتباعه . ولا هو إذا دان بمبدأ أو ذهب مذهباً ألح عليه فى شعره ودأب فى الدعوة إليه ، وبين للناس وجاهته ، ودلل على أصالته وصحته وحسن عاقبته . واستنفد إليهم كل براهينه وحججه ، ورغب إليهم أن يكونوا فيه على غراره . وإنما هى اللمحة الخاطفة والحكمة السانحة

(١) يورى : يشعل . ــ القدح : الإشعال .

obeikandi.com

العابرة، والفكرة الشاردة، والخفقة الخلقية الشريفة العاجلة، يومض بها خياله، أو تلتمع فى ذهنه، أو ينبض بها ضميره بدافع من وحى الساعة وإلهام المناسبة. فيقيدها بعد شرود، ويسجلها قبل براح، ملتقطاً لها من بين أحراج الخيال وأدغال الذهن، مقتنصاً لها من بين موماة الفكر قبل أن تفر.

وما إن تتصفح ديوانه وتعى أبوابه حتّى تطالعك وتروقك من آرائه واتجاهاته ومبادئه جملة صالحة متناثرة، فى خلال حماسياته وأمداحه وخمرياته واستدعاءاته ونحوها. فإن صلحت أن تكون هذه مبادئ، فتلك مبادئ صفى الدين. ومنها:

طلب اللذة

يرى صفى الدين أن الحياة فرصة للتمتع. وأن العمر قصير – مهما طال – وأن كل ما يأمله المرء فى حياته غير اللذة العاجلة، إنما هو غرور. لذلك هو يثب إلى اللذات وثباً، ويباكرها ويماسيها، وينتهز كل فرصة تسنح بها فيعكف عليها وينقطع إليها لا يريم.

ويرى أن لذات الحياة هى اللذات المادية من خمور وحسان وغلمان وسقاة وندمان وغناء وقيان، وما إلى ذلك.

يقول فى بعض استدعاءاته:

ثِبْ إلى اللَّذَّاتِ فَالعُمْرُ قَصِيرْ   وَحَيَاةُ المَرْءِ فى الدُّنْيَا غُرُورْ(١)
لاَ تَدَعَ نَهْبَ سُرورٍ عَاجِلاً   كُلَّمَا أَمْكَنَ فى الدنيا سُرورْ(٢)
فاسرِعِ الخطْوَ فعِندى شَادِنٌ   وَفَتَاةٌ وخُمُورٌ وأُمُورْ(٣)
وسُـــقَاةٌ وَحُدَاةٌ وغِناً   وَجُنُوكٌ وطُبُولٌ وَزُمُورْ(٤)

---

(١) الغرور : الخداع والطمع بالباطل .

(٢) عاجلا : مفعول ثان للاتدع أى ينهب سريعاً . أو حال من الفاعل أى مسرعاً .

(٣) فاسرع : همزتها همزة قطع ، وقد سهلها لضرورة الشعر . – الشادن : الظبى إذا قوى واستغنى عن أمه ، ويريد به هنا الغلام أو الساقى الصغير .

(٤) الحداة : جمع الحادى وهو من يزجر الإبل ويسوقها ، ويريد به المغنى . – غنيا : أصله الغناء قصره للضرورة .

obeikandl.com

كُلَّما دُرْنَا رَأَيْنَا بَيْنَنَا شَادِناً يَشْدُو وَكَاساتٍ تَدُورْ

ولا يكتفى صفى الدين بسن هذه السنة لنفسه أو لصديقه ، بل يهيئ له أسبابها ويغريه بها ، ويقول :

الْتَقِطِ اللَّذَّةَ حيثُ أَمْكَنَتْ فإنَّمَا اللَّذَاتُ فى الدَّهْرِ لُقَطْ(١)

إنَّ الشَّبَابَ زَائِرٌ مُوَدِّعٌ لا يُسْتَطَاعُ رَدُّهُ إذا فَرَطْ(٢)

ولصفى الدين مباذل كثيرة مسجلة فى ديوانه وقصائد ماجنة دالة على اعتناقه هذا المبدأ ، وإن قيل إنه نظمها تمريناً للقريحة .

الذكاء والحظ

يعتقد صفى الدين أن ذكاء المرء محسوب عليه وأن ما يرزقه من العلم أو الأدب ، كفاء لما يحرمه من المال . وفى ذلك عزاء للأديب . يقول :

لَئِنْ ثَلَمَتْ حَدِّى صُرُوفُ النَّوَائِبِ فَقَدْ أَخْلَصَتْ سَبْكِى بِنَارِ التَّجَارِبِ(٣)

و فِى الأَدَبِ البَاقِى الذى قَدْ وَهَبْنَنِى عزاء مِنَ الأَمْوَالِ عَنْ كُلِّ ذَاهِبِ(٤)

ويؤمن بالحظ وأنه يواتى المرء أو ينفر ، حسب قدره ، لا حسب قدرته . فيقول :

فَكَمْ غَايَةٍ أَدْرَكْتُهَا غَيْرَ جَاهِدٍ وَكَمْ رُتْبَةٍ قَدْ نِلْتُهَا غَيْرَ طَالِبِ(٥)

ويقول :

وَمَا كُلُّ وَانٍ فِى الطِّلَابِ بِمُخْطِئٍ وَلاَ كُلُّ مَاضٍ فِى الأُمُورِ بِصَائِبِ(٦)

---

(١) لقط : جمع لقطة على وزن حزمة وهمزة . وهى ما التقط من الأرض . ويريد أنها فرص تنتهز وتختلس .

(٢) فرط : سبق وتقدم وذهب .

(٣) ثلم الشىء : كسر حرفه ، ويريد هنا أصابته وأثرت فيه . — صروف النوائب : إصابات الشدائد التى تنوب المرء وتعتريه — أخلصت سبكى . أجادت تعليمى وتهذيبى . والسبك إذابة المعدن ثم إفراغه فى قالب جديد .

(٤) يريد بالأدب أخلاقه وفضائله ، أو شعره ونثره ومقدرته .

(٥) الجاهد : المجاهد المتعب .

(٦) الوانى : المبطىء من وفى يفى — الماضى : السائر والساعى .

المال

يرى صفي الدين أن المال ينبغي أن يحرص المرء عليه وقاية لعرضه ونفسه فحسب ، ولا يحرص عليه إلا بمقدار ما يقيهما . فإذا صان مالُه عرضَه ونفسه ، لم يبال بعد ذلك بأي حادث من حوادث الدهر ، ولا أي صرف من صروفه . يقول :

أَقِي النَّفْسَ بِالأَمْوَالِ حَتَّى إِذَا وَقَتْ ... كُنُوزُ اللُّهَى نَفْسِي وَقَيْتُ بِهَا عِرْضِي (١)
وَلاَ أَخْتَشِي إِنْ مَسَّنِي وَقْعُ حَادِثٍ ... فَتِلْكَ يَدٌ جَسَّ الزَّمَانُ بِهَا نَبْضِي

ويقول :

يَلَذُّ لِنَفْسِي بَذْلُ مَا قَدْ مَلَكْتُهُ ... وَبَسْطُ يَدِي فِيمَا تَجَمَّعَ فِي قَبْضِي (٢)
وَلَمْ أُبْقِ بَعْضَ الْمَالِ إِلَّا لِأَنَّنِي ... أُسَرُّ بِمَا فِيهِ الْوِقَايَةُ عَنْ عِرْضِي

الشعر

لا يرى أن يتخذ الشعر وسيلة للكسب ولا وسيلة للفخر . بل الفخر هو المستمد من الآباء والأجداد ، وقبل ذلك من عمل المرء بنفسه وما يتصف به من همة ومغامرة ، وهمة المرء وجده ينبغي أن تكون المعين الأول للفخر .

لَسْتُ مِمَّنْ يَدِلُّ مَعَ عَدَمِ الجِدِّ ... بِفِعْلِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ (٣)
مَا بَنَيْتُ العَلْيَاءَ إِلَّا بِجِدِّي ... وَرُكُوبِي أَخْطَارَهَا وَاجْتِهَادِي
وَبِلَفْظِي إِذَا نَطَقْتُ وَفَضْلِي ... وَجِدَالِي عَنْ مَنْصِبِي وَجِلَادِي
غَيْرَ أَنِّي وَإِنْ أَتَيْتُ مِنَ النَّظْمِ ... بِلَفْظٍ يُذِيبُ قَلْبَ الجَمَادِ
لَسْتُ كَالْبُحْتُرِيِّ أَفْخَرُ بِالشِّعْرِ ... وَأَثْنِي عِطْفَيَّ فِي الإِيرَادِ (٤)
وَإِذَا مَا بَنَيْتُ بَيْتاً تَبَخْتَرْتُ ... كَأَنِّي بَنَيْتُ ذَاتَ العِمَادِ (٥)

---

(١) أقي النفس : أحميها – اللهى : العطية والمال ، جمع لهية – العرض : ما يلزمك حمايته .
(٢) المراد بقبضه : يده .
(٣) الجد : الاجتهاد والكد .
(٤) البحتري الشاعر العباسي المشهور وكان يتيه بشعره إذا أنشده – العطف : الجانب .
(٥) ذات العماد : إرم مدينة عاد .

إِنَّمَا مَفْخَرِى بِنَفْسِى وَقَوْمِى   وَقَنَاتِى وَصَارِمِى وَجَوَادِى[١]

الأسفار

أغرم صفى الدين بالأسفار وتحمل مشقاتها ، وأصبح الضرب فى بطون البوادى والرحلة من مصر إلى مصر غاية من غاياته سعياً وراء الشهرة والمجد، وخير له أن يتوسد أيدى المطايا وأن يعانق السيوف من أن يقيم على هوان .

تَوَسَّدْ فِى الفَلَا أَيْدِى المَطَايَا   وَقُدَّ مِنَ الصَّعِيدِ لَهُ حَشَايَا[٢]
وَعَانِقْ فِى الدُّجَى أَعْطَافَ عَضْبٍ   يَدِبُّ بِحَدِّهِ مَاءُ لِلْمَنَايَا[٣]
وَصَيِّرْ جَأْشَهُ فِى البِيدِ جَيْشاً   وَمِنْ حَزْمِ الأُمُورِ لَهُ رَبَايَا[٤]

القناعة

وهو لا يفتأ يرحل، إباء وشمماً أن يقيم على ذل. وما دام معه عقله فهو جدير بأن يبلغه سؤله دون أن يتعرض لما تأباه نفسه . فإذا شعر بأن بلوغ سؤله سيعرضه لمذلة ويحمل عليه ضيماً ، عف عنه وقنع وحمل مشقة الحرمان . وبقناعته يستوى الناس لديه ، فيصبحون بمنزلة أهله ، وتصبح جميع الأقطار أقطاره .

ذَاكَ أَنِّى لَا تَقْبَلُ الضَّيْمُ نَفْسِى   وَلَوْ انِّى افْتَرَشْتُ شَوْكَ القَتَادِ[٥]
هَذِهِ عَادَتِى وَقَدْ كُنْتُ طِفْلاً   وَشَدِيدٌ عَلَىَّ غَيْرُ اعْتِيَادِى
فَإِذَا سِرتُ أَحْسَبُ الأَرْضَ مِلْكِى   وجميعَ الأقطارِ طوعَ قِيَادِى
وَإِذَا مَا أَقَمْتُ فَالنَّاسُ أَهْلِى   أَيْنَمَا سِرْتُ وَالبِلَادُ بِلَادِى

---

(١) القناة : الرمح – الصارم : السيف .

(٢) توسد : اتخذ وساداً ووسادة أى متكأ ومخدة . الفلا : جمع فلاة وهى المفازة التى لا ماء فيها ، والقفر . – المطايا : الدواب جمع مطية . قد : اقطع – الصعيد : وجه الأرض والتراب – حشايا : جمع حشية وهى الفراش المحشو .

(٣) الأعطاف : الجوانب – العضب : السيف القاطع .

(٤) الجأش : نفس الإنسان وقلبه ، ورواع القلب أى مكان الفزع منه .

(٥) الضيم : الذل – القتاد : شجر الشوك .

obeikandl.com

لاَ يَفُوتُ القبولُ مَنْ رُزِقَ العَقْـــلَ وَحُسْنَ الإصْدَارِ والإيرادِ (١)
وإذَا صَيَّرَ القَنَـــاعَةَ دِرْعاً كَانَ أدْعَى إلَى بُلُوغِ المُرادِ

٥ ـ شيعيته

تأثر صفى الدين بالنزعات الشيعية لنشأته فى بلاد العراق ولاتصاله بدول تشيع ، وقيل إنه كان رافضياً . ولكن هذه لم تظهر فى شعره ظهوراً قوياً ، ولم تبرز كما ينبغى لها البروز . وما هى إلا مقطعات يسيرة مدح بها الإمام عليا رضى الله عنه . وقصيدة بائية عارض بها بائية عبد الله بن المعتز ويرد عليه فيها . وبائية ابن المعتز من الشعر المذهبي السياسى يحتج فيها للعباسيين على العلويين ، ويقول فى مطلعها :

أَلاَ مَنْ لِعَيْنٍ وَتَسْكَابِها تَشَكَّى القَذَى وَبُكَاهَا بِهَا (٢)

فسأل نقيبُ الأشراف بالعراق وهو تاج الدين الآوى ، صفى الدين أن ينظم قصيدة على غرار قصيدة ابن المعتز يرد بها عليه . فنظمها وقال فيها :

أَلاَ قُلْ بِشَرِّ عَبِيدِ الإلهِ وَطَاغِى قُرَيشٍ وَكَذَّابِهَا
وَبَاغِى العِبَادِ وَبَاغِى العِنَادِ وَهَاجِى الكِرَامِ وَمُغْتَابِهَا (٣)
أَأَنْتَ تُفَاخِرُ آلَ النبىِّ وتجحدُها فضلَ أَحْسَابِهَا (٤) .. إلخ

وهذه القصيدة هى القصيدة الوحيدة فى ديوان صفى الدين ، من هذا اللون السياسى المذهبى .

هذا : ولعل لصفى الدين قصائد أخرى فى هذا الباب لم تسجل فى دواوينه المتداولة التى بين أيدينا .

---

(١) الإيراد : أن يرسل المرء دوابه إلى الماء لتشرب ، والإصدار إرجاعها . ويريد هنا حسن التصرف وتقدير العواقب .

(٢) تشكى : أى تتشكى مضارع محذوف التاء تخفيفاً والجملة حال . القذى ما يكون فى العين من كدر .

(٣) المغتاب : الذى يهجو غيره فى غيابه

(٤) تجحد : تنكر – الأحساب : المفاخرة والشرف .

٦ ـ منزلته

صفى الدين أشهر شعراء العراق فى العصور التركية ، بل هو أشهر شعراء العربية على الإطلاق فى زمانه . لا يكاد يضارعه إلا معاصره شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى المتوفى عام ٧٦٨ هـ . ولكل منهما خصائص ومميزات يمتاز بها ، فكلاهما شرق شعره وغرب ، وأعجب وأطرب . وهما ، بغير شك زعيما الشعراء فى زمانهما . وابن نباتة سيد شعراء التورية ، وهو أبرز القادرين عليها والمتعصبين لها بعد القاضى الفاضل . ولم يأت بعده إلى اليوم شاعر يدانيه فيها .

والتورية والاستخدام كانا فى مقدمة فنون البديع التى احتفل بها الذوق المصرى منذ العصور الوسطى حتى يومنا هذا . وفى تلك الأيام البعيدة كانا يبدوان فى الأدب الفصيح والعامى ، وكانا يجريان فى أساليب الجمهور العامية . أما الآن فتواريا جملة ، ولم يعد لهما فى الأساليب الفصيحة مكان إلا لماما . ولكن لا يزالان باقيين فى آداب العامة ومخاطبتها. لهذا ولغيره كان ابن نباتة خير من يمثل الذوق المصرى الأصيل من هذه الناحية .

أما صفى الدين فقد عاش أكثر عمره بعيداً عن الشام ومصر ، فلم يتأثر كثيراً بمناهج المصريين والشاميين ولم يحتفل كثيراً بما احتفلوا به من دعائم الأسلوب ولا سيما التورية والاستخدام ، وهو بهذا يمثل الذوق الأدبى فى العراق وفيما وراء مصر والشام .

وهو يمثل هذا الذوق أيضاً بمجونياته التى تبذل فيها ونهج فى صوغها منهج ابن حجاج وابن سكرة من شعراء العراق المتأخرين . فإذا كان ثمة فارق بين صفى الدين وابن نباتة ، فهو الفارق بين الأدب العراق والأدب المصرى الشامى ذلك الحين .

ويترجح شعر صفى الدين بين الصنعة والطبع . فإذا أطلق نفسه على سجيتها ولم يقيدها بهدف بديعى ، جزل وقوى ودانى شعراء العباسية فى أيام زهوها ونضارتها

وإذا جنح إلى الصنعة اقتدر عليها وأصاب هدفه منها . ولكنه كثيراً ما يبدو متكلفاً متعسّفاً فى أذواق الذين لا يتأبون على الأهداف البديعية .

من هذا وذاك ترى أن لصفى الدين مستويات أسلوبية متعددة ، فهو لذلك من أكثر شعراء العربية افتناناً وتلاعباً ، بل لعله أقدرهم فى هذا الناحية إذ يستطيع أن يصرف أسلوبه إلى المستوى الذى يريده .

وقد روى أن صاحب القاموس المحيط مجد الدين الفيروز أبادى لقيه فى بغداد فقال : « اجتمعت سنة ٧٤٧ هـ بالأديب الشاعر صفى الدين بمدينة بغداد فرأيته شيخاً كبيراً وله قدرة على النظم والنثر وخبرة بعلوم العربية والشعر . وكان شيعيًّا قحًّا . ومن رأى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشعر الذى هو كالدر فى الأصداف » .

وقال عنه صلاح الدين الصفدى : « نظم الشعر وله سبع سنين . فلما بلغ الحلم اشتغل بالعربية والأدب . ثم بلغ الرياسة . ورحل إلى البلاد ودخل إلى القاهرة . وكتب عنه بها أبو محمد الحلبى وأبو الفتح سيد الناس وأبو العباس » .

وقال : « وتقدم فى علم الأدب والشعر . وله النظم الرائق الفائق فى النهاية . ومدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة وهى المعروفة بالبديعية وهى ميمية . وله ديوان شعر كبير . وطارح أهل زمانه فى الشعر وطارحوه ، وأثنوا على فضيلته فى ذلك . وكان شيعيًّا . وقد أنفق غالب مدائحه فى ملوك ماردين بنى أرتق . وكان يتردد إلى حماة ويمتدح ملكها المؤيد والأفضل ولده . وكانا يعظمانه وهو من الشجعان الأبطال » .

وقال أبو محمد الحسن بن حبيب عنه ، ما ملخصه : « هو شاعر المشرق ، تقدم على كثير من الأول ، وبين تقصير أرباب السبع الطوال . وبرع فى فنون الأدب وجمع أشتات أقوال العرب . وسار فى الأقطار ذكره ، واشتهر فى الأمصار نظمه ونثره . كان حسن الأخلاق جميل المحاضرة بديع المحاورة وذا نسب ورياسة ولب وحماسة » .

وبعد فصفى الدين أحد الشعراء القلائل الذين جمعوا بين الفروسية والشعر كعنترة وأبى فراس . وخاضوا غمار الحروب وغمار الأدب . ولا ريب أنه أحيا دولة الأدب والشعر العربى فى زمانه، وعمرها بكفاية وجدارة وحفظ سلسلة الفحولة موصولة الحلقات ، فى تلك العصور التركية الأعجمية والمستعجمة . وأنه سباق إلى بعض المبتكرات الأدبية . ولا ريب أيضاً أنه هو وابن نباتة لم يأت بعدهما شاعر فحل حتى ظهر محمود سامى البارودى فى عصر النهضة الحديثة .

obeikandl.com